
اللجنة الثقافية بهيئة التحرير تقدم
اخترنا لك
١
هذه هي
الصهيونية

اخترنا لك ...

١

هذه هي الصهيونية

تصدر هذه السلسلة عن
لجنة الثقافة والنشر بهيئة التحرير بالقاهرة

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر



جمال عبد الناصر

سكرتير عام هيئة التحرير

اخترنا لك ...

بقلم

جمال عبد الناصر

« تعيش الأمة العربية اليوم في مرحلة وسطى بين مرحلتين من مراحل تطورها التاريخي ، تستشرف فيها أملا قريبا ترجو أن تبلغه بكفاحها ، لتسترد اعتبارها وتحقق معنى وجودها في الإنسانية ومكانتها بين أمم الحضارة . . . »

• • •

من هذه البلاد التي تمتد من شاطئ الأطلسي إلى سهول آسيا الوسطى ، نشأت أول دعوة إلى السلام ، وإلى الحق والخير ، وإلى المثل الإنسانية الرفيعة ، وأشرقت بنورها على العالمين القديم والجديد ؛ فمن آثار دعوات الإصلاح المتعاقبة التي انبعثت أول ما انبعثت من بلادنا ، كانت هذه الحضارة التي تعيش فيها اليوم أمم الغرب وأمم الشرق ؛ فنحن المعلمون والروّاد الأوائل

لكل غاية من تلك الغايات . تلك رسالتنا منذ كنا ، ولم تزل هي رسالتنا إلى اليوم والغد وما بعد الغد . . .

على أننا إذ نعيش اليوم فى هذه الحقيقة مؤمنين بها إيمان القلب والعقل ، واعين لها وَعْىَ الحىِّ المدرك ، متهيِّئين للكفاح فى سبيلها تهيُّؤ المكافح الجلد ، نشعر ببعض أوزار الماضى القريب تثقل بنا حين يجب أن نخفَّ للعمل ، أو تجاذبنا إلى الوراء حين يجب أن نمضى إلى أمام ، أو تقعد بنا حين يجب أن ننهض للحركة ؛ فما أجدر أن نتخلص من أوزار ذلك الماضى بشجاعة وحزم ، لنمضى فى سبيلنا إلى حيث نريد لأنفسنا وللإنسانية . . .

وأول الشجاعة أن نعرف أخطاءنا ونعترف بها ، لنغسل بذلك الاعتراف ما ران على قلوبنا من غشاوات الشك أو من دواعى التردد والهزيمة . . .

ثم أن نعرف حقيقة أنفسنا وحقيقة عدونا ، وما نملكه أو ما يملكه كلانا من أسباب النصر فى كل معركة قادمة أو معركة مرتقبة ، ليتحدد مكاننا فى ميدان الكفاح ، فلا تنالنا البغتات من حيث لم نكن نحتسب . . .

ثم أن نتحسس مكاننا ذاك ، فنعرف أين نحن مما حولنا ، وممن حولنا ، ومما تحت أرجلنا من تراب الأرض ، وما فوق رءوسنا من رجوم

السماء ؛ لنمضي فيما نمضي على هدى وبصيرة ، فلا يخدعنا شيء عن حقيقة ما نطلبه من أهداف قريبة أو بعيدة . . .

ثم أن نستكمل كل أسباب المعرفة ، لنعيش فى الحياة بوعى كامل ، نتذكر به الماضي كله بغير حياء ، ولو كان فيه ما يسوءنا ؛ وندرك به الحاضر كله من غير مخادعة ، ولو كان فيه ما يثقل على نفوسنا ، ونستشعر به أمل المستقبل كله بغير إسراف ولا مبالغة ، ولو كان السبيل إليه محفوفاً بالمهالك . . .

وفى سبيل إنضاج هذا الوعى الكامل فى نفس كل عربى من أبناء أمتنا ، يجب أن نعمل منذ اليوم ؛ لنذكر الماضى كله بغير حياء ، وندرك الحاضر كله من غير مخادعة ، ونستشعر أمل المستقبل كله بغير إسراف ولا مبالغة . . .

ومن أجل ذلك كله ننشر هذه الحلقات المتتابعة من سلسلة « اخترنا لك » .

ومن أجل ذلك كانت أول حلقة من حلقاتها عن الصهيونية. . .

* *

لقد كانت هزيمتنا السياسية فى المعركة الأولى بيننا وبين الصهيونية هى أول اليقظة العربية بعد نوم طويل استمر قروناً ، فلم يكد المكافحون العرب يعودون من المعركة إلى ثكناتهم محزونين مما آل إليه أمرهم وأمر عدوهم ، حتى توالت الأنباء من

كل قطر عربى تدل على بشائر اليقظة ؛ وقد مضى اليوم خمس سنين منذ نفضنا أيدينا من غبار تلك المعركة الأولى ، فأين ماضينا ذاك مما نحن عليه اليوم؟ لقد صنعت هذه السنوات الأمة العربية صنعة جديدة ، فأنشأت فى قلب كل عربى وعياً جديداً ، وفكراً جديداً ، وعزيمة جديدة . . .

ليس بنا اليوم حياء مما كان ؛ فقد كان بأيدى غيرنا لا بأيدينا ذلك المصير المؤلم الذى انتهى إليه كفاحنا الباسل فى تلك المعركة ؛ ولن يكون لمثل ذلك « الغير » مكان بيننا منذ اليوم ، فلن نتعرض مرة أخرى لمثل ذلك المصير !

بهذا الإيمان المطلق بأنفسنا فى وعينا الجديد ، وفى عهدنا الجديد ، نبدأ هذا اللون من ألوان الكفاح الثقافى ، ليستشعر كل قارئ عربى مكانه وإمكانه ، فيتهيأ لأداء واجبه فى الغد واعياً مستنيراً كبير النفس قوى العزيمة . . .

إن المعركة بيننا وبين الصهيونية لم تنته بعد ، بل لعلها لم تبدأ بعد ؛ فإن لنا ولها غداً قريباً أو غداً بعيداً ، نغسل فيه عاراً ، ونحقق أمنية ، ونسترد حقاً . . .

وإن بيننا وبين الاستعمار معركة قد بدأت فى بعض الميادين ، ولكن معارك فى ميادين أخرى لم تبدأ بعد بيننا وبينه ، وإن لنا وله كذلك غداً قريباً أو غداً بعيداً ، نغسل

فيه عاراً ، ونحقق أمانى ، ونسترد حقوقاً . . .

وإن نزعات آثمة وأفكاراً شريرة ومذاهب مدمرة تزحف اليوم إلى عقولنا وقلوبنا من بلاد قريبة أو من بلاد بعيدة ، لتحطم فى نفوسنا الإيمان بالمثل الإنسانية الرفيعة ، وتخدعنا عن حقيقة وجودنا الروحانى فى هذه البقعة من العالم التى خصها الله برسالاته وبأنبيائه وجعل أهلها رواد الحق والخير والجمال والفضيلة للبشرية كلها ؛ فإن معارك قريبة أو بعيدة لتوشك أن تنشب كذلك بيننا وبين تلك النزعات الآثمة ، لندافع عن طُهر قلوبنا وعن مُثُلنا الإنسانية الرفيعة . . .

وإن فيما تحت أرجلنا من الأرض ، وفيما فوق رءوسنا من السماء ، وفيما يتصل بسواحلنا من ماء ، وفيما يتاخم حدودنا من بَرِّيَّة ، عناصر طبيعية يمكن أن نفيد منها خيراً كثيراً ونتوقّى شرًّا كثيراً ، لو أننا أعددنا أنفسنا منذ اليوم بالوعى العلمى الناضج لمعرفة ما فى بطن الأرض وما فى جوف الماء وما فى مسابح الجو من عناصر هذه الطبيعة التى تحيط بنا ؛ فإن معارك قريبة أو بعيدة كذلك توشك أن تنشب بيننا وبين تلك العناصر ؛ فلنتهيّأ لتلك المعارك منذ اليوم بعلم ما لم نعلم عن أرضنا وبحرنا وجوّنا وصحارينا ؛ لنطمئن إلى النصر الأخير فى كفاحنا للسيطرة على عناصر الطبيعة . . .

ذلك بعض ما ينبغى أن نعلم من علم أنفسنا وما حولنا ومن حولنا ، ومن علم الكون كله ؛ ومن أجل تحقيق أسباب هذا العلم «اخترنا لك» . . .

* * *

وسيرى القارئ فى هذا الكتاب قصة الصهيونية كيف نشأت ، وكيف اختلف حولها الرأى بين أهل الرأى فى الدين والسياسة ؛ ثم كيف تطورت من عقيدة دينية إلى مذهب سياسى لأهل دين من البشر لا يجمعهم جنس ولا أبوة ؛ ثم كيف تفاعلت تلك العقيدة وذاك المذهب السياسى فنشأت من تفاعلهما خطة محكمة التدبير واضحة الهدف ممهودة الطريق لم تلبث أن آتت ثمرتها فى الوقت المقدور . . .

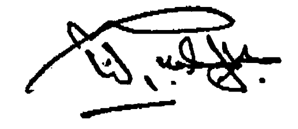
وقد يرى القارىء فى بعض فصول هذا الكتاب ما لا يقره من الرأى أو من طريقة الخبر ، ويجد فى بعض ذلك ما يسوءه ؛ فليتسع صدره لما يجد من ذلك ؛ فإنما هو كتاب أنشأه أحد غلاة الصهيونيين «إسرائيل كوهين» يقص فيه قصة الصهيونية من وجهة نظر صهيونية ، مؤمناً بما قال ، أو مدعياً ليخدع الرأى الدولى العام ؛ فليصدق فى بعض ما قال أو يكذب فيه كله ، فليس يعنينا مما قاله إلا أن نعرف قصة الصهيونية كما رواها رجل من أهلها ؛ ليكون لنا من العلم بها وعى جديد يعيننا فيما

نستقبل من مراحل الكفاح . . .

* * *

أما بعد فإننا لنرجو بهذه السلسلة المختارة من الكتب أن نبلغ بعض الهدف الذى نستشرفه أو نقاربه ؛ فإن لم يكن هذا الكتاب الأول قد أوضح كل الغاية التى أردناها فإننا لنأمل أن نبلغ بالكتب التالية كل ما أردناه .

والله ولىّ التوفيق .



هذه هى الصهيونية

تهدف الحركة الصهيونية إلى استيطان اليهود أرض فلسطين ، وقد بدأت الحركة خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والغرض منها تحقيق حلم طالما داعب اليهود وأقض مضاجعهم منذ أزال الرومان مملكة يهوذا من خريطة الوجود ، فما كاد اليهود يفقدون استقلالهم حتى صاروا يضرعون إلى ربهم فى صلواتهم أن يردهم إلى أرض الميعاد ، وتأصلت هذه الأمنية فى قلوبهم فى القرون الوسطى حينما اجتاحتهم موجة من الاضطهاد ، بلغت الذروة إبان العصر الحديث ؛ إذ ساءت أحوالهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وتعقبتهم سياط الحكام أينما حلوا ، فاختلط الدين والجنسية وانصهرا فى بوتقة العذاب ، وإذا كانت بعض طوائف منهم قد صادفت جواً من التسامح الدينى فى بعض دول ؛ فما حال هذا يوماً من الأيام دون تعلقهم بأمنية العودة إلى الوطن القومى ، حتى أصبحت لديهم عقيدة دينية قائمة على ما وعد به رب السموات والأرض نبيه إبراهيم من أن الأراضى المقدسة ستبقى أبد الآبدين وقفاً على ذريته ، فظلوا على إيمانهم الراسخ بأن المسيح سيأتى ذات يوم لينشر

السلام على الأرض ويجمع شملهم فى أرض أسلافهم ، وكانوا يجدون فى هذا الأمل ما يخفف اللوعة ويشفى النفوس الحائرة فيذكرونه فى صلواتهم اليومية الثلاث ، مبتهلين إلى الله أن يبعث صهيون ويعيدهم إلى أورشليم .

وكان هذا الدعاء يتردد فى أعيادهم التى تذكرهم بأحداث العهد القديم ، أما صيامهم فيمتد طوال فترات يتخللها الحزن على أيامهم الخوالى ومجدهم الضائع ، وأما التلمود الذى يحفظونه عن ظهر قلب فيذكرهم بالأرض الطيبة التى كان يفلحها أجدادهم ، والمعبد الذى كان يشهد صلواتهم وأدعيتهم بأن يعود مخلص الشعب المختار إلى أرض صهيون .

فإذا ما حل عيد الفصح وانتهت فترة التوبات ، تبادل اليهود التحية فيما بينهم قائلين : إلى اللقاء فى أورشليم العام القادم ! وكان المتدينون منهم يحجون إلى بيت المقدس فى القرون الوسطى ، أما أولئك الذين لم يسعدهم الحظ بهذه الزيارة ، فقد كانوا يوصون أهلهم بأن يضعوا تحت رءوسهم فى مثواهم الأبدى حفنة من تراب فلسطين .

تلكم هى العقيدة التى كانت متأصلة فى نفوسهم طوال القرون السبعة عشر التى تلت انهيار مملكة يهوذا ، إلى أن ظهر الفيلسوف موسى مندلسون فى ألمانيا ونشر تعاليمه بين

طائفة من تلاميذه بأن خلاص اليهود رهن باندماجهم فى وسط جيرانهم المسيحيين والأخذ بعاداتهم واعتناق ثقافتهم .

ثم جاء دعاة الإصلاح أمثال صامويل هولديم وازهام جيجر فنادوا بضرورة العدول عن الاعتقاد بأن المسيح سيأتى ذات يوم لخلاص بنى إسرائيل ، وحذفوا من الصلوات والتراتيل ما يدعو لهذه العقيدة .

وكانت النظرية الألمانية الجديدة قائمة على أن الأصل فى تشتيت اليهود أن فى عنقهم أمانة الاختلاط بالناس وهدايتهم إلى وحدانية الله .

غير أن المتزمتين رأوا أن هذه النظرية قامت لتبرير فكرة أن اليهود طائفة دينية ، وليس هذا بالمعنى الصحيح .

ولكن كثيراً من اليهود اعترضوا على هذا الاستحداث ، باعتبار أن تشتيتهم لا يعتبر نعمة وإنما هو نقمة من الله أن شردهم من بلادهم جزاء لما ارتكبوا من ذنوب.

أجل إنهم لم ينكروا أن الواجب يقتضيهم ، بوصفهم من أهل الكتاب ، أن ينشروا مبادئ الحق والعدالة ، ويهدوا إلى الصراط المستقيم ، بيد أنهم كانوا يؤمنون بأن أداء هذه الرسالة ليس رهناً ببقائهم أشتاتاً .

ولم تبدأ الخطوات العملية فى سبيل تحويل هذا المثل

الأهلى – الرجوع إلى أرض الميعاد – قبل النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، إذ كانت وسائل التنظيم تعوزهم فيما قبل ، ولم يكن لهم حول ولا قوة من الناحية السياسية .

وقد سبقت هذه المحاولات بعض وعود بذلت لهم ، أخصها بالذكر وعد نابليون بونابرت بإعادتهم إلى فلسطين إذا لبوا دعوته وانضموا تحت لوائه ، ثم أيد هذا الاتجاه فيما بعد نفر من الساسة والكتاب فى بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا ، إلى أن حدثت الاضطهادات الدينية فى روسيا ، فتألفت منذ ذلك الحين جمعيات « عشاق صهيون » التى كانت رسالتها تقوم على استنهاض الهمم فى سبيل استيطان اليهود .

ثم عقد أول مؤتمر يهودى فى سنة ١٨٨٤ ، وكان من نتائجه أن نشأت بعض مستعمرات زراعية فى فلسطين ، كان يواليها البارون إدمون دى روتشيلد بهبات ، ثم تبين بعد ١٥ سنة أن ثمرة الجهد الذى بذله المستعمرون كانت ضئيلة .

هذه هى قصة الصهيونية – كيف نشأت ، وكيف تضاربت حولها الآراء ، وهل كانت عقيدة أو خطة أحكم تدبيرها – يرويها ويستعرض مراحلها أحد غلاة الصهيونيين ، إسرائيل كوهين ، ونقدمها لقرائنا العرب علهم يتبينون خطرها ، ويتحرزون منه . . .

ظهر تيودور هرزل ، وكان نشاطه مرحلة حاسمة فى تطور الحركة الصهيونية ، إذ تحولت من حركة دينية تعيش على هبات المحسنين إلى حركة سياسية منظمة .

وعقد أول مؤتمر صهيونى فى سنة ١٨٩٧ ، فوضع الحركة على أسس سياسية ، وكان أول ما تستهدفه ، إنشاء وطن قومى فى فلسطين يكفله القانون الدولى .

وقد أثارت قرارات هذا المؤتمر عاصفة هوجاء من الجدل والمعارضة ، فانبرى فريق من اليهود ينادون بأن عظمة الأمانى التقليدية لشعب إسرائيل تكمن فيما يبدو من عدم إمكان تحقيقها ، وضرورة تركها لحين ظهور المسيح فيجمع الشمل ويلم الشتات .

كما عارض الحركة الجديدة « عشاق صهيون » الذين كانوا لا يرومون التوسع فى استعمار فلسطين ، ولكنهم ما لبثوا بعد بضع سنوات أن أضحوا من أشد أنصارها .

وفى الجملة كان المعارضون فريقين : أولهما يستند إلى أسباب دينية بحتة ، والآخر يتعلل بأسباب سياسية ظاهرية .

والواقع أن اليهودية التقليدية كانت تبث تعاليمها على أساس شراء أكبر مساحات من أراضى فلسطين ، وانتزاعها من أيدى أصحابها ؛ أما المعارضون السياسيون فكانوا يدعون أبناء عشيرتهم إلى الاختلاط بسكان البلاد التى يعيشون فيها إلى أن يندمجوا فيهم ، ويخشون الدعوة إلى إنشاء وطن يهودى ، بحجة أن المسيحيين قد يرتابون فى ولائهم للدولة التى تؤويهم .

وقد اشتد الجدل بين بنى إسرائيل حول معرفة ما إذا كانت اليهودية جنسية قائمة بذاتها ، أم أنها مجرد تعبير عن طائفة دينية ؛ ويعتقد الصهيونيون المتعصبون أن كلمة « جنسية » يختلف معناها فى دول وسط أوربا وشرقها ، عنه فى غرب أوربا وأمريكا ؛ ففى الأولى هى تعبير يطلق على شعب أو جنس ، وفى الأخرى تستعمل مرادفة للانتماء إلى دولة ما ، مع ما يتضمن هذا من حقوق وواجبات متساوية بين الجميع .

وكان بعض اليهود يزهون بازدواج الجنسية ، إذ كانوا يطلقون على أنفسهم اسم يهود ألمان أو يهود أمريكيين ، بينما يرى فريق آخر منهم ضرورة التحرر من القيود المفروضة عليهم ، اقتصادية كانت أم سياسية أم اجتماعية فى سائر الدول التى يقيمون فى أراضيها ، ويطالب بأن تتاح لهم فرصة التوطن حتى يثبتوا للعالم أنهم قادرون على العمل والإنتاج ،

شأنهم شأن غيرهم ، وأنهم ليسوا كما يقال عنهم عالة على الإنسانية ، ويزعمون أن لهم ثقافة وآداباً لن تلبث أن يتسع نطاقها حينما يعود الاتصال بين بنى إسرائيل فى وطنهم القومى .

تلكم بعض حجج اليهود لإنشاء وطن قومى يلم شملهم ، إلا أن أمنيتهم اصطدمت بمعارضة الدولة العثمانية قبل اشتعال الحرب العالمية الأولى ؛ فاقتصر النشاط الصهيونى على الدعاية وأعمال التنظيم ، إلى أن بذل لهم بلفور وعده المشئوم عام ١٩١٧ وقبلت بريطانيا الانتداب على فلسطين غداة معاهدة فرساى ، فحانت لهم فرصة تحقيق أمانيهم القومية بإنشاء وطن لهم فى فلسطين . وازداد هذا النشاط على يد الوكالة اليهودية التى قامت على أكتاف جماعة ممن كانوا يناوئون الصهيونية قبل ذلك .

فترة التشريد

ما الذى حدا باليهود إلى التفكير فى العودة إلى فلسطين ، وقد انقضى على تشريدهم ثمانية عشر قرناً ؟

سؤال أثار دهشة العاطفين على الحركة الصهيونية والناقمين عليها جميعا ؛ غير أن القائمين على الحركة يزعمون أن اليهود ، منذ دالت دولتهم على أيدى الرومان إلى أن دخل الجيش البريطانى الأراضى المقدسة ، ظلت طوائف منهم تعيش فى فلسطين وتعانى الفقر والاضطهاد ولكنها تحيا بقوة الإيمان .

وقد توالى عليهم الرومان والبيزنطيون والفرس والعرب والأتراك والمماليك والمغول والعثمانيون ، ولكنهم لم يكفوا يوماً من الأيام عن التعلق بالأمل فى إعادة مجدهم البائد .

ويقول غلاة الصهيونيين إن أسلافهم دافعوا عن استقلال بلادهم سنة ٧٠ قبل الميلاد ، وفقدوا فى سبيل ذلك مئات الألوف من بنى إسرائيل . واضطر عدد كبير منهم للعيش فى المنفى تحت ضغط الإرهاب السياسى والانهيار الاقتصادى . لا أن كثيراً منهم آثروا البقاء فى أرض أجدادهم ، وظلت سلالات منهم تعيش حتى اليوم فى منطقة الجليل العليا والمناطق



الجنوبية من الأردن محتفظة بعادات اليهود الأولين وتقاليدهم .

ولم ينقض على حكم الرومان ستة أعوام حتى اشتعلت نيران ثورة جامحة بقيادة زعيم يدعى « بار خوشبا » ما لبث أن استرد بيت المقدس وظل معتصماً بها ثلاث سنوات (١٣٢ – ١٣٥) حتى جرد الرومان عليهم حملة اجتاحت أراضيهم وأزالت قلاعهم وأحرقت قراهم ؛ ومات من اليهود ستمائة ألف قبل أن تقمع الثورة .

ولكي يتقي الرومان شر الثورات بعد ذلك أداروا المحاريث فيما تبقى من أطلال القدس ، وقضوا على رءوس الأفاعي التي كانت تنفث سمومها في الظلام ، وأرسلوا عدداً كبيراً من الثوار مكبلين بالأغلال إلى روما ، حيث عاشوا في العبودية والذل .

ثم أصبحت المدينة المقدسة مستعمرة رومانية أطلق عليها اسم « إيليا كابيتولينا » ، كما أطلق على أراضي الدولة اليهودية اسم فلسطين ؛ واجتاح مصر والعراق وبعض الأقطار الأوروبية سيل من المهاجرين ، ولم يبق في فلسطين إلا عدة آلاف من اليهود حرمت عليهم زيارة أطلال القدس إلا مرة واحدة في السنة ، للتأمل والبكاء على تخريب معبدهم .

ولما خفت حدة المظالم الرومانية عادت الحياة إلى فلسطين

وبعثت عدة قرى ، ومنحهم السادة حكماً ذاتياً ؛ فكان لهم مجلس تشريعي استقر أخيراً فى مدينة طبرية ، وكان يتوارث رياسته أناس من سلالة داود ، كان الرومان يعترفون لهم بزعامة الطائفة اليهودية فى فلسطين وسائر أنحاء الإمبراطورية الرومانية .

وفى أواخر عهد الرومان وأوائل حكم بيزنطة ازدهرت الحياة فى فلسطين واشتغل معظم سكانها بالزراعة والحرف اليدوية ، كما انتشروا حتى شواطئ البحرين الأبيض والأحمر ؛ وشهدت مدن قيصرية واللد وطبرية عدداً من كبار الفقهاء اليهود الذين وضعوا أحكام التلمود والمشناح — وفيهما تراث العهود القديمة من ثقافة ودين — فضلا عن المراسيم الدينية التى يتبعها اليهود فى عباداتهم وصلواتهم حتى وقتنا هذا .

وظل الحكام من سلالة داود يباشرون السلطة فى فلسطين إلى أن انتزعها منهم الإمبراطور تيودور الثانى فى أوائل القرن الخامس .

وقد بذل لليهود وعدان بإعادة بناء معابدهم ومنحهم الاستقلال ، فكان أول من مناهم بذلك الإمبراطور جوليان الرومانى عام ٣٦١ غير أنه قتل فى أثناء حربه مع الفرس ؛ وفى خلال القرن الرابع وعدهم أحد ملوك الفرس بمنحهم الحرية إذا انضموا تحت لوائه ، ولما كتب له النصر ذكروه بوعده

فكان نصيبهم السجن والنفى والعذاب الأليم ، إذ اعتبرهم خارجين عن طاعته متمردين على سلطانه .

ثم اشتعلت الحرب من جديد بين بيزنطة وفارس ، وثار البيزنطيون لهزيمتهم السابقة التى ساهم بنو إسرائيل فيها ، فنكلوا بهم وخربوا ديارهم وصادروا ممتلكاتهم وأجبروهم على اعتناق المسيحية .

وجاء دور العرب ، فحاربوا البيزنطيين ، وعقد النصر لألوية الخليفة عمر فاحتلت جيوشه أرض فلسطين . ويزعم الصهيونيون أنه على الرغم من الاضطهاد السياسى والضيق المادى اللذين عاناهما أهل فلسطين قرناً بعد قرن ، ظل اليهود فى سائر أنحاء العالم يرنون إلى أرض الميعاد فى عباداتهم وتقاليدهم وصلواتهم ؛ فيدعون الله فى الصباح أن يأخذ بأيديهم ويلم شملهم فى أرض أسلافهم ؛ وعلى الرغم من تفرقهم شيعاً وطوائف فى بلاد عدة فإنهم ظلوا يضرعون إلى الله أن ينزل المطر على أرض إسرائيل أثناء الفصول التى يندر فيها نزوله ! .

ونعود إلى تعاليم التلمود الذى سبق أن ذكرنا أن فقهاء اليهود وضعوا أحكامه فى القرون الأولى ، فنقول إنها حقيقة ذات مغزى ، فاليهودى الذى يرحل عن فلسطين لا يستطيع إكراه زوجته على مرافقته ، وعلى النقيض من ذلك إذا انتوى الإقامة

فى أرض الميعاد وأبت زوجته أن توافيه إليها كان له أن يطلب الطلاق ؛ كما أن الديانة اليهودية التى تحرم التعامل والتعاقد بعد ظهر يوم السبت ، تستثنى من ذلك فى أحكامها التفاوض لشراء مسكن فى فلسطين .

هذا إلى أدب الدين اليهودى الذى يحوى من التعاليم عجباً ، فيقال : « إن من سار أربعة أمتار فى أرض فلسطين خصه الله بمكان فى الجنة » .

«وأولى بك أن تعيش فى صحراء فلسطين الجرداء من أن تعيش فى قصر منيف »

« وثواب العيش فى أرض الميعاد يعادل ثواب طاعة الله فى كل ما أوصى به موسى » .

«ومن كتب له أن يعيش فى فلسطين محيت ذنوبه » .

وقد ازدهرت أحوال اليهود فى عهد خلفاء عمر الذين منحوهم حرية الإقامة فى القدس ، وسمحوا لهم ببناء معبد إلى جانب حائط المبكى .

وفى القرن الثامن قامت حروب بين الأسر المالكة العربية ، فساءت أحوال اليهود ، لا سيما بعد انتقال عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد ؛ إذ ولى أمرهم حكام طغاة من الفرس والأتراك استبدوا بهم وأذاقوهم ألوان العذاب ، فظلوا على هذا الحال حتى غزا

الأتراك السلجوقيون أرض فلسطين واستولوا عليها ؛ ثم جاء الصليبيون فى أعقابهم ، فكان حكمهم نكبة حلت على رءوس اليهود ، إذ لم تقتصر مهمتهم على إجلاء الأتراك فحسب ، وإنما امتدت إلى ذبح المسلمين واليهود على السواء ، فدافع هؤلاء جنباً إلى جنب عن القدس دفاعاً مجيداً ، حتى إذا ما سقطت دفع الغزاة بمن تبقى منهم إلى المعبد وأحرقوهم أحياء ، وأعملوا الذبح فى آلاف ممن وقعوا فى أيديهم بالدساكر والقرى الفلسطينية ، كما بيع آلاف آخرون فى أسواق العبيد .

وفى سنة ١١٦٩ — بعد انقضاء ثلاثين عاماً على هذه المجزرة — زار فلسطين يهودى يدعى بنيامين دى توديل ، فبلغ عدد الأسر التى أحصاها فى أنحاء فلسطين يومئذ نيفاً وألف أسرة .

وفى سنة ١١٧٥ نزل بأرض الميعاد رحالة آخر يدعى بتاحيا من أهل راتسبون ، فلم يعثر فى بيت المقدس إلا على يهودى واحد كان يدير مصبغة للملابس .

وكان انتصار صلاح الدين الأيوبى على الصليبيين عام ١١٨٧ فاتحة خير واستقرار ؛ فقد كان فارساً مغواراً ذا قلب رحيم ، ولما توسط لديه طبيبه الخاص « الميمونى » سمح لليهود بالعودة إلى بلادهم ، فتدفق سيل المهاجرين اليهود من بلدان غرب أوربا إلى فلسطين وتكونت منهم طوائف عدة تختلف

فيما بينها بجنسيتها التي انتمت إليها فى الأصل .

وحكم الأيوبيون والمماليك من بعدهم فلسطين حتى انتزعها الترك منهم عام ١٥١٧ ، فازداد تدفق اللاجئين اليهود إلى فلسطين ، فى أعقاب الاضطهاد الديني ومحاكم التفتيش فى أسبانيا ؛ وكان أغلبهم يمتاز بتربية عالية وعلم واسع ، فشغلوا أسمى المناصب بين أبناء دينهم ، وما لبثت عشائر المغاربة منهم أن اندمجت مع الطوائف العربية اليهودية ، بينما ظل يهود ألمانيا وبولندا على انزوائهم لا يختلطون بالآخرين .

ذلكم هو التقسيم الطائفى الذى استمر عدة قرون فى فلسطين ، إذ لم يعد يهود بخارى وفارس واليمن إلى أرض صهيون قبل القرن التاسع عشر ، وتلا هؤلاء يهود وسط أوربا وشرقها فانضموا إلى طائفة الأشكنازى .

وقصارى القول أن حكم الأتراك الذى دام زهاء أربعة قرون امتاز بعدم اكتراث الحكام بالمحكومين وما كانوا يفرضونه من ضرائب قاصمة ، مما أنزل الفقر بأهل فلسطين ، عرب ويهود ؛ ودام ذلك الحال إلى أن طرد محمد على الأتراك من فلسطين عام ١٨٣٢ وحاول بعد ذلك إجراء الإصلاحات ، إلا أن الضرائب ظلت باهظة بقدر ما كانت إبان حكم العثمانيين ، فثار عرب فلسطين على سادتهم ، واستولوا على القدس

وصفد فلم يتركوا فيهما يهودياً واحداً إلا استحلوا أمواله .

وقمع المصريون ثورة العرب عام ١٨٣٧ ، ثم حدث زلزال مروع فقضى على نحو ألفين من اليهود .

وقامت الحرب مرة أخرى بين محمد على والباب العالى ، فتدخلت الدول الأوربية وأعيدت سوريا وفلسطين إلى الحكم العثمانى بعد أن وعد الأتراك بإجراء بعض الإصلاحات ومعاملة جميع السكان على قدم المساواة .

ثم استقرت أحوال اليهود بعد إنشاء عدة قنصليات أوربية كانت كل واحدة منها تمنح حمايتها لرعاياها الأصليين بمقتضى الامتيازات التى منحها العثمانيون لبعض دول أوربا .

* * *

اختلط العنصر الدينى وفكرة ظهور المسيح الذى سيعيد اليهود ذات يوم إلى فلسطين ، بالعنصر السياسى فى بعض الأحيان ؛ وكان أول مظاهر هذا الاختلاط مشروع وضعه دافيد روبينى خلال القرن السادس عشر ، وكان يقضى بدعوة زعماء اليهود من العرب إلى غزو فلسطين وانتزاع أراضيها من أيدى الغاصبين الغزاة بمساعدة أقطاب اليهود فى أوربا مستهدفين تأسيس دولة يهودية فى الأراضى الفلسطينية .

ولكن هذا المشروع أثار الذعر فى النفوس فمات فى

المهد ، وظهر فيما بعد مشروع آخر عرضه تاجر دانيماركي يدعى أوليجر باولى على ملك إنجلترا غليوم الثالث ، وملك فرنسا لويس الرابع عشر ، وكان هذا المشروع يقوم على أساس دنيوى لا دينى ، غير أن عاهلى إنجلترا وفرنسا أعرضا عنه .

وجاء أول عرض رسمى على اليهود من جانب نابليون بونابارت أثناء حملتى مصر وسوريا ، إذ نشرت الجريدة الرسمية بتاريخ ٢٠ إبريل سنة ١٧٩٩ ، نداء وجهه القائد الفرنسى إلى يهود آسيا وأفريقيا ، مستحثاً إياهم إلى الانضواء تحت رايته لكى يعيد إليهم مجدهم الضائع ويرد لهم حقوقهم المسلوبة منذ آلاف السنين .

ولكن نابليون لم يلبث أن فك الحصار عن عكا وعاد إلى بلاده قبل أن يصل نداؤه إلى اليهود .

ثم تولى الدفاع عن الفكرة بعض رجال الدين والأدب والسياسة من الإنجليز فى مستهل القرن التاسع عشر .

وكان المسيحيون منهم يؤيدون فكرة استيطان اليهود بحافز من الإنجيل ، إذ كانوا يعتقدون أن اليهود إذا ما عادوا إلى القدس فلن يلبثوا أن يعتنقوا المسيحية .

وقد خلد لورد بيرون تشريد بنى إسرائيل فى أغانيه العبرية

إذ قال : « إن للحمامة البيضاء عشاً صغيراً ، وللثعلب وكراً ، ولكل إنسان وطنه ، إلا اليهود فلهم القبور ! »

وجاء ديزرائيلي فحدب على قضية اليهود فى روايته دافيد اكروا ، وجعل بطلها يقول : « تسألينى عن أعز أمنية عندى ، وجوابى : هى أرض الميعاد ، وتسألينى عما يداعب أحلامى ، فأقول : أورشليم ، وتسألينى عما يستهوى فؤادى ، فأقول : إنه الكنيس . . .

« أجل ، أريد كل ما فقدناه فى سالف الزمان ، وما تهفو إليه نفوسنا ، وما جاهد آباؤنا وأجدادنا فى سبيل استرجاعه . . . بلادنا الجميلة ، وعقيدتنا القدسية ، وعاداتنا البسيطة ، وتقاليدنا القديمة . »

ثم وضع جورج أليوت بعد ذلك قصة دانييل ديروندا المعروفة ، ودافع فيها عن فكرة استيطان اليهود أرض الميعاد .

وتلاه عدد من الشخصيات خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فأبدوا اهتمامهم بالمشروع من الناحية العملية ، وكان من بينهم سير مويز مونتفيور الذى سافر إلى مصر وعرض على محمد على مشروعاً للوطن القومى اليهودى .

ثم لورد شافتسبرى الذى بذل وساطته لإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين تضمنه الدول العظمى ، وقدم بذلك مذكرة إلى وزير خارجية إنجلترا فى أثناء انعقاد مؤتمر لندن عام ١٨٤٠ .

وأخذت هذه الفكرة تتبلور ، وتظهر إلى حيز الوجود ، لولا انعدام تنظيم اليهود من الناحية السياسية ، فانتهى الأمر بأن أصدر بالمرستون تعلياته الى القنصل الإنجليزى فى القدس بأن يضفى حمايته على اليهود الذين كانوا من رعايا بريطانيا — ولعل هذه الحماية كانت حجر الأساس لوعد بلفور الذى بذله لليهود عام ١٩١٧ — ثم عقد خلال ١٨٤١ مؤتمر بمدينة دبلين ، وكان من ضمن قراراته طلب التدخل البريطانى فى سبيل استيطان اليهود فى فلسطين ، وقد وعد بالمرستون رئيس الوزراء بأن يبذل كل جهوده لمنح اليهود الذين يعيشون فى فلسطين ضمانات لسلامتهم وصيانة أموالهم .

وبعد أن تألبت الدول الأوربية على محمد على ، وأعيدت الشام وفلسطين للعثمانيين ، حصل تشارلس هنرى تشرشل (أحد أبناء عمومة ونستون تشرشل) على فرمان من السلطان عبد الحميد يكفل لليهود المساواة فى الحقوق المدنية .

ثم قام بالخطوة العملية التالية عام ١٨٥٤ سير مويز مونتفيور ، بمساعدة الحاخام الأكبر الإنجليزى ناتان أدلر ، فجمعا ٣٠ ألف جنيه لإسداء المعونة ليهود فلسطين الذين قاسوا كثيراً من القحط فى أعقاب حرب القرم ، وحصل أولهما على فرمان جديد يخول لليهود حق حيازة الأرض ، ثم اشترى بعض الأراضى

فى القدس ويافا ، وأنشأ مدرسة للبنات ، وبنى طاحوناً ، كما أسس مستعمرتين زراعيتين فى صفد وطبرية .

وقامت حركات مماثلة فى فرنسا ووسط أوربا وشرقها ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر ، وكان القائمون بها من أشد اليهود حماسة لفكرة بعث الدولة اليهودية ، فنشأت أول مدرسة زراعية يهودية فى فلسطين عام ١٨٧٠ ، ولكن تلاميذها الأولين خيبوا الآمال ، بأن هاجروا بعد تخرجهم إلى مصر والأراضى الأمريكية التى كانت إذ ذاك بكراً .

هذا ولم تؤد الكتب والنشرات التى وزعت وقتذاك إلى الغرض المرجو منها بين جماهير اليهود من سكان روسيا وبولندا ورومانيا ، لذلك لم يكن للدعوة أثر فى هذه الطوائف التى ظلت متعلقة بالأرض التى تعيش عليها ، إلى أن قامت فى ألمانيا حركة على يد موزيز مندلسون ، سميت بحركة التنوير ، وكانت تستهدف إيقاظ يهود الشرق من سباتهم العميق ، وحثهم على العودة إلى أرض الميعاد ، مع الأخذ بعادات وثقافات ولغات الدول التى يعيشون فيها بصفة مؤقته حتى يصبحوا مواطنين صالحين وينالوا المساواة فى الحقوق المدنية مع غيرهم من سائر البلدان .

وقد كان لهذه الحركة أثر عكسى فى روسيا ؛ إذ حارب اليهود أحكام التلمود التى كانت تتسلط على عقائدهم ، آملين

بذلك أن تتحسن أحوالهم ويزول الحيف الذى يلحق بهم والعسف الذى يصيبهم من جراء حكم القياصرة ؛ ولكن هذه الحركة ماتت أثر مذبحة اليهود خلال عام ١٨٨٢ فرأى دعاة الحركة أنه لم يعد ثمة عيش لليهود إلا فى أرض أسلافهم ، أرض الميعاد .

وشهدت روسيا بعد ذلك ميلاد مدرسة جديدة صاحبها كان يدعى سيمحا بينسكر الذى لخص حالة اليهود المهينة على النحو التالى ، قال : « هل نحن حقاً أمة تعيش بين الأمم ؟ أين صوت اليهود فى مجمع الدول ؟ هل لنا رأى فى مشاكلنا ؟ . . .

« إن وطننا بلد أجنبي لاعيش لنا فيه ، ووحدتنا تشريد ، وتضامننا مع سائر الشعوب عداء سافر لكل ما هو يهودى ، وسلاحنا ذلة ومسكنة ، ووسيلة الدفاع عن أنفسنا الفرار ، أما مستقبلنا فسر فى باطن الغيب . . . فياله من دور وضيع يقوم به اليهود على مسرح الحياة ! »

ثم يمضى بينسكر فيقول : « إن العالم يحتقر اليهود لأنهم ليسوا بأمة حية ، ولأنهم أجانب فى كل بلد يعيشون فيه ، لذا فإن تحريرهم مدنياً وسياسياً لا يبرر رفع شأنهم بين سائر الشعوب ؛ والعلاج الناجع لهذا الداء المستعصى هو إيجاد جنسية يهودية لشعب يعيش فى أرض الوطن . »

واقترح أن تجتمع الهيئات المختلفة حول مائدة ، وتقرر شراء بعض الأراضي الفلسطينية عن طريق إغراء أصحابها بما تدفعه من أثمان مرتفعة ، ثم تخصص اعتمادات لشراء الأراضي التي يستعمرها المهاجرون من الفقراء .

هذا هو المشروع في خطوطه العريضة ، وكان الأمل في تنفيذه معلقاً على تأييد الحكومات الأوربية في ذلك العهد ، وهو وإن لم يؤت ثماره في ذلك الحين ، يعتبر الخطوة الأولى في سبيل تحقيق مشروع الوطن القومي اليهودي .



حركة « عشاق صهيون »

حدث أول رد فعل لهذه الدعوة ، كما سبق أن قدمناه ، فى روسيا ؛ وكان الرد عليها مذابح اليهود بإيعاز من السلطات الرسمية ، والغرض منها تحويل سخط الطبقات الشعبية على الحكومة القيصرية — للفساد والرشوة والاهمال التى تأصلت جذورها — نحو اليهود الذين اتهمتهم السلطات الرسمية بأنهم أصل البلاء وأس الداء الذى تعانيه الحكومة .

فلما تفاقمت الحالة وتوالى صدور القوانين المجحفة ، أخذ آلاف من اليهود يهاجرون إلى الولايات المتحدة سعياً وراء الحرية وسلامة الأرواح ، ونأى الكثير منهم عن فكرة الاندماج إلى فكرة استيطان وطن قومى يهودى ، فتألفت جمعية « عشاق صهيون » ، وكان أول همّ لها الحث على نشر اللغة العبرية ، كما لو كانت لغة حية ، تمهيدا للهجرة إلى فلسطين واستعمار أراضيها .

ولكن الحكومة التركية أصدرت وقتذاك قانوناً يحرم على اليهود دخول فلسطين ، كما منعت حكومة القيصر الدعوة للهجرة ، فانهارت آمال اليهود فى احتمال استيطان فلسطين على نطاق واسع ، ولم يوفق فى الوصول إليها إلا نفر قليل لا يتجاوز العشرين شابًّا

أنشأوا عام ١٨٨٢ على مقربة من يافا أولى المستعمرات الزراعية ، وأطلقوا عليها اسم ريشون ليزيون أى (الأولون فى صهيون) ، ثم توالى بعد ذلك إنشاء المستعمرات على أيدى المهاجرين فى سائر الجنسيات الأوربية ، وكانت كل واحدة منها نواة تركزت حولها مستعمرات أخرى فى مناطق جودا ، والخليل الشمالية والجنوبية ، والسامرية .

ولولا الهبات التى قدمها إليهم البارون إدمون دى روتشيلد لدب اليأس فى نفوسهم وعادوا إلى مواطنهم الأصلية .

وما كان أقطاب جمعية عشاق صهيون ليتركوا بنى جلدتهم يعيشون على عطايا المحسنين ، ويستجدون المال ذات اليمين وذات الشمال ، لذلك عقدوا مؤتمرين أولهما فى سنة ١٨٨٤ والثانى فى سنة ١٨٨٧ ، وتقرر فيهما تنظيم عملية تمويل المهاجرين بالمال لشراء أراض جديدة .

ثم اتسع نطاق الجمعية خلال السنين العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وامتد نشاطها من روسيا إلى بقية الدول الأوروبية ، وكانت رومانيا أولى الدول التى لقيت فيها الحركة تأييداً قوياً ، بعد أن كان اليهود يعدون فى نظر السلطات الرسمية أنداداً للخارجين على القانون ، أما فى النمسا فقد كانت العناصر الوطنية تناوئ اليهود وتحرم عليهم دخول الجامعات والانضمام إلى

الهيئات الرياضية ، فتألفت بضع جمعيات يهودية تهدف إلى تشجيع الهجرة إلى فلسطين، وكانت أعلاها شأناً جمعية (كاديناح) التي تولى رياستها صحفي يدعى بيرنوم ، ويرجع إليه الفضل في ابتكار عبارة « الحركة الصهيونية » .

أما في ألمانيا فقد تألفت إلى جانب « عشاق صهيون » جمعية أخرى للطلبة أسندت رياستها إلى ليوموتسكين ، وكان من بين أعضائها حاييم وايزمان الذي أصبح فيما بعد أول رئيس لدولة إسرائيل .

كما تألفت جمعيات مماثلة في إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة تستهدف إنشاء كيان سياسي لليهود بوسائل متباينة .

وراحت فروع جمعية عشاق صهيون تجمع الأموال في البلاد الواقعة على جانبي الإطلنطي ، وترقب عن كثب جهود المستعمرين اليهود في فلسطين باهتمام بالغ .

ثم ظهر داعية مجهول كان يوقع مقالاته باسم « أحد الناس » ويدعو إلى البعد عن الطريق الذي كانت تسلكه جمعية عشاق صهيون ، والأخذ بفكرة الصهيونية الفكرية والروحية دون الصهيونية المادية ، وقد أثارت أفكاره هذه جدلا عنيفاً في الأوساط اليهودية العالية ، ولكن نفراً من أعضاء عشاق صهيون شايعوه وألفوا جمعية «أبناء موسى» التي أسست فيما بعد.

ثم ظهرت بعد ذلك مستعمرات عدة تخصص بعضها فى زراعة الكروم والبعض الآخر فى تربية الماشية ، كما بنيت كهوف ضخمة لتخزين النبيذ فى مستعمرة ريشون ليزيون ، وكان البارون روتشيلد يشترى لحسابه الخاص جميع الأنبذة ويتولى توزيعها فى شتى أنحاء العالم ، فتألفت شركة الكارمل للقيام بهذه العملية بدلا منه .

ثم ساءت أحوال المستعمرين من الناحية الاقتصادية لعجزهم عن منافسة العمال العرب الذين كانوا يتقاضون أجوراً ضئيلة .

وفرض البارون على المؤسسات التى كان يقيمها بأمواله عدداً من المديرين كانوا يعاملون المستعمرين اليهود كما لو كانوا عالة تعيش على البر والخير ؛ فأثاروا عاصفة من النقد والهياج بين بنى عشيرتهم . ولم تكن جمعية عشاق صهيون بما تجمعه من مال الخيرين الذى لا يتجاوز ستة آلاف جنيه سنوياً ، قادرة على تحسين أحوال اليهود ؛ وهل يجدى مثل هذا المبلغ الضئيل بالقياس إلى ملايين الفرنكات التى كان ينفقها البارون ؟ . . .

لذلك دب اليأس فى نفوس أعضاء الجمعية أثناء انعقاد المؤتمر السنوى فى أوربا عام ١٨٩٦ ، وبدا آنذاك أن أيامها أصبحت معدودات .

هرزل والصهيونية اليهودية

كان تيودور هرزل صحفياً ومؤلفاً مسرحياً ، لا يعلم عن الثقافة العبرية شيئاً ، ولم يتصل من قبل بمن بذلوا الجهود لاستيطان اليهود فى فلسطين ، فقد ولد لتاجر ثرى ، وعاش فى بيئة مجرية مسيحية تخلّق بطابعها ورضع لبان ثقافتها ، ولولا تجاريب الحياة وما كان يترامى إلى سمعه من أنباء مذابح اليهود فى روسيا ، لما أعمل الفكر لخلاص بنى جلدته .

وقد درس الحقوق فى ڤينا ، حيث استقرت أسرته منذ عام ١٨٧٨ ثم ما لبث بعد عام من تخرجه أن طلق القانون وأرخى العنان لنزعته الأدبية ، فاشتهر أمره ، وعين مراسلا لصحيفة نيوفرى بريس بباريس .

وكانت قضية الفريد دريفوس ، التى اتهم فيها بالخيانة وصدر عليه الحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وتجريده من رتبته العسكرية ، فكانت هذه القضية أكبر عامل على تحويل حياة هرزل ، فقد رأى اليهود فى فرنسا ، بعد أن تمتعوا بالمساواة المدنية ، تطبيقاً لمبادئ الثورة الفرنسية — الحرية والمساواة والإخاء — يواجهون حركة رجعية عنيفة ، فراح يتأمل حالتهم ويرثى

لمأساتهم . نقول إن قضية دريفوس نكأت جرح شعوره الديني ، فكرس حياته بعد ذلك لإيجاد حل لقضيتهم ، ووضع لذلك كتيباً سماه « دولة اليهود » ضمنه أفكاره التقدمية وما يبتغيه لقومه من خير .

وكان من رأيه أن اليهود إينما حلّوا ، ومهما يبلغ ولاؤهم للدولة التي يعيشون في أراضيها ، ومهما جلت الخدمات التي يؤدونها لمواطنيهم ، لن يتركهم هؤلاء يعيشون في سلام .

وذكر أيضاً أن المشكلة اليهودية قائمة في كل بلد يعيش فيه عدد كبير منهم ، وبما أنهم يهاجرون إلى الأقطار التي لا يلقون فيها الضيم والاضطهاد . فإنهم يحملون معهم أينما ذهبوا النزعة التي تثير أسباب العداء ضد الأجناس السامية .

وقد يجوز أن يندمج اليهود في الشعوب التي يحيون بين ظهرانيها لو أنهم تُركوا في سلام مدى جيلين ، ولكن الفرص لا تتوفر لهم .

فالمشكلة اليهودية ، والحالة هذه ، ليست بدينية ولا هي باجتماعية ، وإنما هي مشكلة قومية لا يمكن حلها إلا إذا اعتبرت مسألة سياسية عالمية ، يتوافر على دراستها مندوبو الأمم المتحضرة حول مائدة مستديرة ، والحل الموفق الذي يراه ، هو أن يمنح اليهود سيادة على رقعة متسعة في أرض معمورة تكفي غلتها المطالب

الشرعية لأمة محترمة . . .

وفيما عدا ذلك اقترح هرزل تأسيس وكالة يهودية تتولى الأعمال التحضيرية الخاصة بالتنظيم والمفاوضات السياسية ، وشركة يهودية أخرى تكرس جهودها لمختلف المسائل المالية والاقتصادية .

وقد اختتم بحثه قائلا : « إن الدولة اليهودية لازمة للعالم فيجب أن تنشأ » . . .

ولم يعين هرزل البقعة التي يستوطنها اليهود ، وإنما ترك الخيار للرأى العام اليهودى ، فإما الأرجنتين وإما فلسطين ، وذكر أنه قام بما عليه من واجب ، ولن يجرى قلمه بحرف واحد فى هذا الموضوع إلا للرد على حملات النقاد من ذوى الرأى .

وقد جاءت هذه الحملات عنيفة على أثر ظهور الكتيب فرماه البعض بالجنون ، وكان البعض الآخر أكثر ترفقاً به فسماه بصاحب الخيال الخصيب .

وعرض هرزل أمره على الدكتور ماكس نوردو الكاتب ذى الشهرة العالمية والطبيب النفسانى ، فوعده بالمساعدة .

واتصل هرزل بيهودى من أصحاب الملايين يدعى البارون دى هيرش ، كان قد أسس جمعية الاستعمار اليهودى ، لتوطين اليهود المشردين فى بعض مناطق فى الأرجنتين والولايات المتحدة ، ورصد لذلك من ماله عشرة ملايين من الجنيهات ، غير أن هرزل

لم يوفق إلى إقناعه بضرورة إيجاد حل سياسى لمشكلة اليهود ، وأخفق مسعاه .

وعاد إلى فينا عام ١٨٩٥ ليشغل منصف رئيس تحرير القسم الأدبى فى صحيفة نيو فرى بريس ، ثم قام بمحاولات عدة لدى بعض المقامات اليهودية الإنجليزية دون طائل .

وأخيراً قرر أن يتجه إلى الرأى العام اليهودى مباشرة ، فأصدر نشرة عن الدولة اليهودية ، ما لبثت أن ترجمت إلى الإنجليزية والفرنسية ، فكان لها صدى عظيم فيما وراء الأطلنطى ، وعلق عليها كثير من الساسة والأدباء من يهود وغير يهود ، ثم ظهر أن خصومه فى الرأى العام أقوى نفوذاً ممن احتضنوا فكرته وروجوا لها .

وكان من رأى الخصوم الذين ينادون باندماج اليهود فى الشعوب التى يعيشون بين ظهرانيها ، أنه لو أخذ بنظرية هرزل ولم يكتب لها التوفيق ، أثار ذلك الشكوك حول ولاء اليهود .

ونادى بعضهم أن هرزل مارق زنديق يسعى إلى (تأخير عقارب الساعة) وتتنافى رسالته مع تعاليم الدين ، فضلا عن أن مسعاه كفيل بأن يوغر الصدور على اليهود ويملأ القلوب حقداً عليهم ، هذا إلى أن اليهود غير صالحين لاحتراف الزراعة ، فكيف يطلب إليهم أن تقوم اقتصادياتهم على أساسها . أما أنصار هرزل فكان الجانب الأكبر منهم يعيشون فى شرق

أوربا ، حيث كانت جمعية عشاق صهيون تبذل نشاطها على أوسع نطاق ، وحيث كان الوعى الدينى اليهودى يقظاً شديد الحساسية .

وكانت الحجة التى استندوا إليها فى مواجهة النقاد ، هى أن نصف مجموع اليهود فى العالم يعيشون فى روسيا ورومانيا منبوذين ، ويعتبرون فى نظر الحكومتين كالخارجين على القانون ، فمن العبث أن يلاموا على فتور وطنيتهم ، وأن يطلب إليهم استمراء الحيف والاستبداد ، وأن يطيلوا بقاءهم فى البلاد التى يقيمون فيها بحجة انتظار ظهور المسيح الذى سيجمع شملهم فى أرض صهيون ، هذا إلى أن إعادة كيانهم كأمة مستقلة لن يزيد فى المصاعب الدولية ، لأنهم ليسوا بأصحاب مطامع إقليمية ترمى إلى التوسع [1] .

أما عدم صلاحيتهم للزراعة فقول مردود ، لأنهم نجحوا فى هذا الميدان بروسيا .

وكان أعضاء جمعية عشاق صهيون منقسمين على أنفسهم ، فريق المؤيدين وفريق الساخطين على هرزل ونظريته لأنه نشأ

---

(١) كذلك كان اليهود يزعمون قبل أن تصير لهم دولة . يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم . وليذكر القراء أننا ننقل إليهم فى هذه الصفحات حديث رجل من إسرائيل يتحدث بلسان قومه ليخدع الرأى الدولى العام !

فى بيئة تأقلمت فى ألمانيا واندمجت فى أهلها ، ولم يتلق أصول الشريعة الموسوية .

هذا كما يخشى أيضاً من أن تثور ثائرة الحكومة التركية فتحرم على اليهود استعمار الأراضى الفلسطينية .

تلكم حجج المؤيدين والمعارضين لنظرية هرزل ، غير أن الآخرين ما لبثوا أن اعتنقوا وجهة نظره شيئاً فشيئاً ، وتوالت عليه رسائل التأييد من مختلف الهيئات اليهودية فى العالم ، فأصدر بماله الخاص صحيفة داى فيلت (العالم) على ورق أصفر اللون ، رمزاً للعار الذى كان وصمة لليهود فى القرون الوسطى ، ثم أصبح فى تلك الظروف رمزاً لمجدهم القومى .

وتقرر بعد ذلك عقد أول مؤتمر صهيونى بمدينة بال فى منتصف عام ١٨٩٧ فدام ثلاثة أيام وشهده نيف ومائتا مندوب يمثلون سائر الهيئات اليهودية العالمية ومختلف الطبقات والمهن .

وكان المؤتمر المذكور نقطة تحول فى تاريخ اليهود ، إذ اجتمع ممثلوهم للمرة الأولى منذ ثمانية عشر قرناً حول مائدة واحدة ، وتدارسوا الوسائل الكفيلة بإعادة بناء دولتهم التى دالت على أيدى الرومان .

وقد وضع فى هذا المؤتمر برنامج الحركة الصهيونية ، كما وضعت أسس المنظمة اليهودية ، وأوصى المؤتمر بالتدابير التالية لتحقيق الأهداف الصهيونية .

١ – تشجيع الاستعمار اليهودى فى فلسطين بطريقة منظمة .

٢ – تنظيم الحركة اليهودية واتحاد الهيئات المتفرقة فى شتى أنحاء العالم .

٣ – إيقاظ الوعى اليهودى .

٤ – القيام بمساع لدى مختلف الحكومات للحصول على موافقتها على أهداف الحركة الصهيونية .

وتنفيذاً لتوصيات المؤتمر تأسست الشركة اليهودية لدولة اليهود ، واعتبرت الأداة المركزية لجميع الهيئات اليهودية ، وأصبح صهيونياً كل من يعتنق المبادئ التى وضعت فى مؤتمر بال ، ويدفع اكتتاباً سنوياً قدره شلن واحد ، للمساهمة فى نفقات الهيئة التنفيذية . وسداد هذا المبلغ يخوله الحق فى الإدلاء بصوت لانتخاب مندوب فى المؤتمر ، الذى يعد فى مجموعه صاحب الرأى الأخير فى المسائل السياسية وكل ما يتخذ من تدابير باسم المنظمة الصهيونية .

وقد انتهت مداولات المؤتمر بنشيد الأمل الذى أصبح فيما بعد النشيد الوطنى اليهودى .

ولما عاد هرزل إلى فينا كتب فى صحيفته يقول :

« لو طلب إلىّ تلخيص أعمال مؤتمر بال فإنى أقول – بل أنادى على رؤوس الأشهاد – إننى أسست الدولة اليهودية . وقد

يثير هذا القول عاصفة من الضحك هنا وهناك ، ولكن العالم قد يشهد بعد خمسة أعوام ، أو بعد خمسين عاما ، ما فى ذلك من شك ، قيام الدولة اليهودية حسبما تمليه إرادة اليهود بأن تنشأ لهم دولة ! »

وكان هذا المؤتمر بمثابة نقطة البدء لحملة دعاية واسعة النطاق ، فما لبثت الجمعيات المحلية اليهودية فى كل بلد أن أعلنت انضمامها للحركة الصهيونية ، التى أصبحت مشكلة الساعة ، وأحيت ميت الآمال فى نفوس اليهود المشتتين بعد أن خبت جذوتها على مر القرون ، كما أشاعت فى أوساط اليهود حب آدابهم العبرية القديمة ، وجددت الرغبة فى تلقى أصول اللغة العبرية .

ورأس هرزل المؤتمر الثانى الذى عقد بمدينة « بال » وقد تضاعف عدد مندوبيه أو كاد ، فآمن بنجاح فكرته ، إذ شهده بعض رجال الدين الذين كانوا من قبل أشد المعارضين لنظريته .

وقد أسفر هذا المؤتمر عن إنشاء بنك اعتبر الأداة المالية للشركة اليهودية ، وحدد رأس ماله الاسمى بمليونى جنيه استرلينى ، وبدأ نشاطه يظهر فى حيز الوجود عام ١٩٠٢ .

وفى هذه الأثناء خطا هرزل خطوة سياسية ذات شأن ، إذ سعى إلى الحصول على فرمان من السلطان عبد الحميد ، أثناء زيارة الإمبراطور غليوم الثانى للأراضى المقدسة ، يمنح اليهود شبه استقلال ذاتى ، إلا أن هذا الأمل انهار حينما التمس هرزل الإذن

بالمثول بين يدى إمبراطور ألمانيا فى القدس ليلتمس تأييده فتهرّب من الوعد .

ولم يثمر المؤتمر الصهيونى الثالث الذى عقد ببال عام ١٨٩٩ فرأى هرزل أن يعقد المؤتمر الرابع فى لندن ، استثارة لعطف الرأى العام الإنجليزى واستنهاضاً لهمة الحكومة كيما تتدخل لدى الباب العالى فيمنح اليهود نظاماً شبه استقلالى فى فلسطين .

وقد تحقق الأمل فى أعقاب المؤتمر ، إذ اجتمع هرزل بلورد لانزدوان ، وزير خارجية بريطانيا آنئذ .

أما المؤتمر الخامس فقد شهد تفاقم الخلاف بشأن الثقافة العبرية وضرورة الاهتمام بها فى المقام الأول ، تمهيداً لإنشاء وطن قومى فى فلسطين ، واقترح حاييم وايزمان تأسيس جامعة عبرية ، فوافق المؤتمر على تأليف لجنة ثقافية لبحث المشروع .

ومن بين النتائج التى تمخض عنها المؤتمر الخامس ، قرار بإنشاء البنك الوطنى اليهودى ليتولى عملية شراء الأراضى من عرب فلسطين ، وقد أصبح فيما بعد مؤسسة وطيدة الأركان غير قابلة للتصفية أو الحل ، وقام بدور حيوى بالنسبة ليهود فلسطين .

وما كان هرزل ليهتم بمسائل التربية الوطنية أو استعمار الأراضى التى كان يرى إرجاءها إلى أن يتيسر الحصول على الضمانات التى تكفل لليهود استقلالا ذاتياً فى فلسطين .

وبعد أن بذلت مساع ووساطات ، حظى هرزل بالمثول بين يدى السلطان عبد الحميد ، وكان يعلم أن الباب العالى يعانى ضائقة مالية ، فضرب على هذا الوتر الحساس ، واقترح على السلطان أن يدفع اليهود أتاوة سنوية معينة ، وأن يسعى لدى بنك الاستعمار اليهودى ليقدم قرضاً للباب العالى ؛ وتوالت الزيارات والمقترحات ، ولكن جهود هرزل ذهبت أدراج الرياح حينما اقتصر السلطان على الوعد بمنح اليهود حرية الإقامة واستعمار الأراضى فى الأناضول والعراق وسوريا ، دون فلسطين ، فى نظير مبلغ إجمالى قدره مليون وستمائة ألف جنيه .

وقد روى هرزل أنه رفض عرض السلطان فوراً عند ما استثنى فلسطين من بين الأراضى التى يخول لليهود الحق فى استعمارها .

وفى هذه الأثناء حدثت فى لندن اضطرابات على أثر تضخم عدد المهاجرين اليهود الذين فروا من روسيا بسبب اضطهاد حكومة القيصر ، فتألفت لجنة ملكية للتحقيق ، وكان من بين أعضائها لورد روتشيلد زعيم الجالية الإنجليزية اليهودية ، فاجتمع به هرزل وأدخل فى روعه أن كره الجنس السامى ينتقل مع المهاجرين اليهود أينما حلوا ، لذلك فهو يقترح أن تخصهم إنجلترا برقعة من أراضيها ، إما فى شبه جزيرة سينا وإما فى قبرص .

وذهب هرزل إلى وزير المستعمرات البريطانية يوسف تشمبرلن ثم عرض عليه الفكرة ، فلم يخف عنه أن استيطان اليهود فى قبرص سيصطدم ولا شك بمعارضة سكان الجزيرة ، أما فيما يتعلق بشبه جزيرة سيناء فقد ذكر الوزير أنها من اختصاص زميله وزير الخارجية .

وفى اليوم التالى قصد هرزل إلى وزارة الخارجية واجتمع بوزيرها لورد لانزداون ، ولما عرض عليه المشروع أقره وزوده بكتاب توصية لصديقه لورد كرومر المعتمد البريطانى بالقاهرة .

وتألفت لجنة فنية لدراسة طبيعة الأرض بمنطقة وادى العريش فاتضح أنها غير صالحة للزراعة إلا إذا وضع لها نظام ثابت للرى ، وواصل هرزل مساعيه لدى الحكومة المصرية ، غير أن المسئولين رفضوا المشروع لاستحالة جلب الكميات اللازمة من مياه النيل إلى هذه الأراضى ، وقد اتضح فيما بعد أن الرفض راجع إلى أسباب سياسية .

وجاء بعد ذلك عرض تشمبرلين إقطاع اليهود أراضى فى مستعمرة شرق إفريقيا ، فلم يجد إقبالا من هرزل الذى ظلت منطقة وادى العريش تداعب أحلامه لقربها من أرض الميعاد ، إلى أن حدثت مذبحة اليهود فى مدينة كيشينف الروسية ، فأعاد هرزل الكرة على تشمبرلين ، ووافق هذا على أن يختص اليهود بهضبة

قريبة من مدينة نيروبى عاصمة كينيا البريطانية ، مع وعد بالاستقلال الذاتى وتعيين حاكم يهودى . . .

ولكن هرزل سافر إلى روسيا واجتمع بفون بليفيه وزير الداخلية وصاحب الحول والطول ، ولما عرض عليه مشروع وادى العريش وعده بأن يستخدم نفوذه لدى السلطات حتى تصرح لمن يريد من اليهود بالهجرة إلى الخارج ، على شرط أن تتوقف حملة الدعاية الصهيونية على الفور ، ووافق وزير مالية روسيا دى ويت على إنشاء فرع للبنك اليهودى . . .

وفى المؤتمر الصهيونى السادس الذى عقد عام ١٩٠٣ وهو آخر مؤتمر شهده هرزل ، ثار عليه أعضاء المؤتمر ثورة عنيفة ، ووجه إليه مر النقد لمفاوضته فون بليفيه المتهم بالتحريض على ذبح اليهود ، ولقبول هرزل فكرة استيطان اليهود فى شرق أفريقيا مع أن فلسطين هى القبلة التى يتجهون إليها بأنظارهم وقلوبهم ؛ وحاول ناردا و صديق هرزل الحميم أن يعمل على تخفيف حدة المؤتمرين وعدائهم لمشروع الوطن اليهودى فى أفريقيا ، فخرج على المؤتمر بفكرة أن هذه الأراضى لا تزيد على كونها ملجأ يلوذ به اليهود مؤقتاً للتدرب على شئون إدارة وطنهم الأصلى فى فلسطين مستقبلا ؛ ولكن هذه الحجج لم تقنع المتطرفين ، لا سيما مندوبى روسيا .

وقرر المؤتمر أن هذا المشروع غير مقبول ، ولكن من الممكن

إيفاد لجنة لمعاينة الأراضي الأفريقية والنظر فى صلاحيتها للاستعمار ، على شريطة ألا يتحمل نفقتها البنك اليهودى .

وأجرى الاقتراع على القرار المذكور ، فلما وافقت عليه الأغلبية انسحب أعضاء الوفد الروسى إلى قاعة مجاورة وارتفعت أصواتهم بالنحيب ، كأنما فقد اليهود فلسطين إلى الأبد ؛ وبعد ذلك اجتمع بهم هرزل وأكد لهم أنه لن يحيد عن رأيه فى إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ، فاقتنعوا وعادوا فى اليوم التالى إلى قاعة المؤتمر .

وفى منتصف عام ١٩٠٤ مات هرزل ، فلبس عليه الحداد يهود العالم أجمع ، وبذلك طويت صفحة المجاهد الذى أحدث ثورة فى حياة اليهود وأفكارهم ، وخلق لهم كياناً بعد أن ظلوا طوال ثمانية عشر قرناً محل كراهية الأمم واضطهاد الحكام .

الصهيونية السياسية والعملية

كان موت الزعيم هرزل ضربة قاسية على الحركة الصهيونية ، لا لأنه كان باعثها فحسب ، وإنما لكونه محط آمال اليهود فى تحقيق هدفهم الأسمى ، ألا وهو إنشاء وطن قومى فى فلسطين .

فمن عساه يكون خليفة هرزل ؟

لقد أجمع اليهود على اختيار نارداو خلفاً له ، ولكنه رفض هذا التشريف ، لأسباب صحية فى الظاهر ، ولاعتبارات أخرى احتفظ بها لنفسه على ما يبدو

وانقسم الصهيونيون حول الخلافة من جانب ، وحول ضرورة العدول عن مشروع شرق أفريقيا من جانب آخر .

وكان لا بد لحسم النزاع من مؤتمر جديد ، فتقرر أن يعقد بمدينة بال فى أول أغسطس ١٩٠٥ .

وكانت حرب شعواء بين المؤيدين والمعارضين للمشروع ، وبعد مناقشات حامية اتخذ المؤتمر قراراً بالعدول عن المشروع وتقديم الشكر للحكومة البريطانية على ما قدمت من معونة لليهود ، ووعد من هؤلاء بأن يتقبلوا كل مسعى حميد تقوم به حكومة لندن فى سبيل إيجاد وطن قومى لهم فى فلسطين أو مايجاورها من أراض .

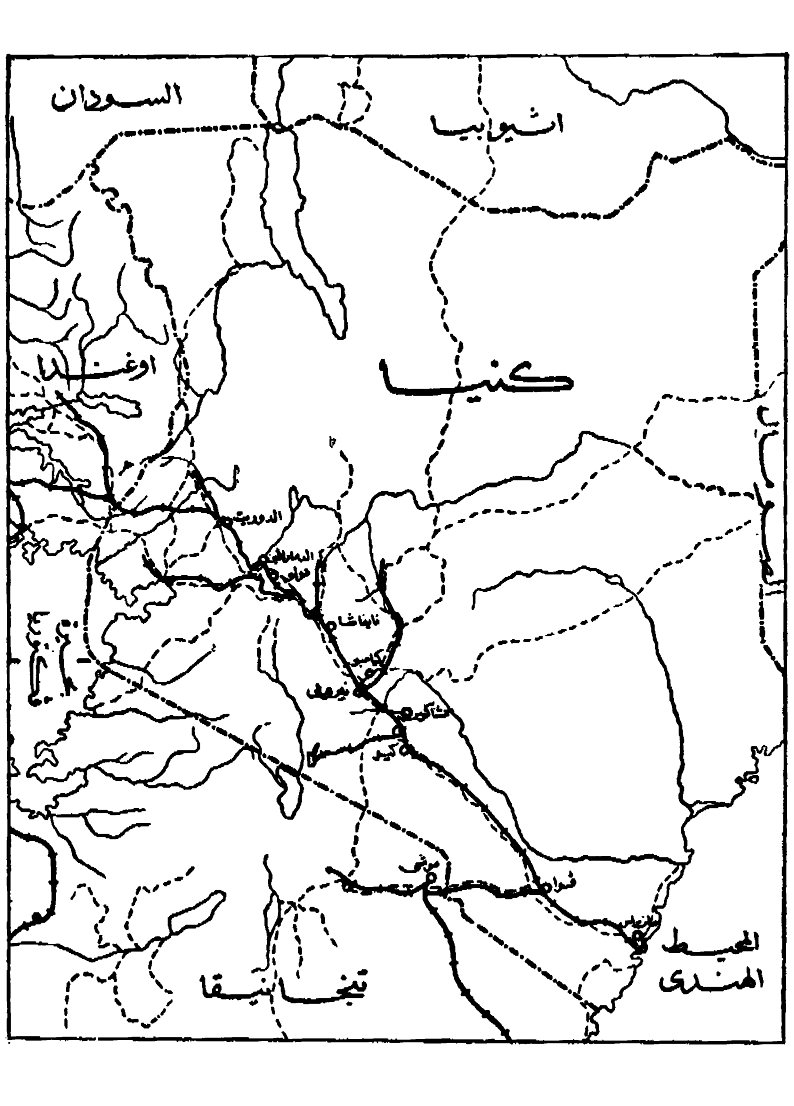
وهذا ما حدث بعد اثنى عشر عاماً من ذلك التاريخ .

أما وقد عدل نهائياً عن مشروع شرق أفريقيا ، وتلاشى الأمل فى صدور فرمان بمنح اليهود فى فلسطين شبه استقلال ، فقد اتجه اليهود نحو برنامج جديد يقضي ببدء عمل إنشائى فى فلسطين ، والجد فى نفس الوقت نحو بلوغ أهداف الحركة ؛ فتألفت لهذا الغرض لجنة عهد إليها بإجراء أبحاث علمية لتحديد الإمكانيات الاقتصادية فى فلسطين ؛ وجاء تقريرها بنتائج مشجعة .

أما مشكلة الرياسة فقد حلت بانتخاب مجلس تنفيذى يتألف من سبعة أعضاء من بينهم أربعة يحبذون الصهيونية السياسية على أساس ألا يبدأ العمل فى فلسطين إلا بعد الحصول على ضمانات سياسية ، وثلاثة ممن يحبذون الاستمرار فى شراء الأراضي والمثابرة على العمل حتى تتاح الفرصة للحصول على وطن قومى فى فلسطين تكفله الدول العظمى .

واختير أحد ثراة اليهود ، ويدعى ولنسون ، رئيساً لقيادة الحركة ؛ وانتقل مقرها إلى مدينة كولونيا بغرب ألمانيا .

وظهر بعد ذلك أن ولنسون وإن كان لا يتمتع بصفات سابقه النادرة ، إلا أنه كان شديد الحماسة للحركة الصهيونية ، فضلا عن إدارته الحازمة وصموده فى وجه أنصار الصهيونية العملية .



السودان
اثيوبيا
اوغندا
كنيا
الدوريت
نايفاشا
كيبو
موشى
تنجانيقا
المحيط
الهندى

وفى هذه الفترة تألف حزبان جديدان ، أحدهما يدعى (الحركة الروحانية) ويدعو إلى التمسك بأهداب القوانين السماوية والتقاليد العبرية القديمة ، والآخر حزب (عمال صهيون) الذى يدين بمبادئ الحركة الصهيونية على أسس اشتراكية ، ومنهما يتألف الجناحان الأيمن والأيسر ، كما يحاول كل منهما فرض وجهة نظره على مندوبى المؤتمرات التى عقدت فيما بعد .

وعلى أية حال ، فإن الحركة بعد أن أفاقت من الضربة المزدوجة التى أصابتها بموت هرزل ، وحدوث الانقسام بين أقطابها والمشايعين لهم ، مضت فى سبيل النجاح قدماً بحافز من شعور اليأس المتزايد إزاء حالة اليهود فى وسط أوربا وشرقها ، فانضم إليها كثير من روسيا ، حتى بلغ تعداد اليهود وقتذاك ستة ملايين نسمة ، ولم يكتف مندوبوهم فى المؤتمر الذى عقد فى الأيام الأخيرة من عام ١٩٠٥ بالمطالبة بالمساواة فى الحقوق المدنية لليهود فحسب ، وإنما أرادوا أيضاً أن يعترف لجاليتهم فى روسيا بأنها وحدة شعبية قائمة بذاتها فى جميع الشئون التى تتعلق بحياة اليهود الخاصة ، وفى سبيل تحقيق مراميهم تقدم عدد من المرشحين اليهود فى أول انتخابات لمجلس الدوما خلال هذه السنة ، فنجح منهم خمسة ، ولكن المجلس ما لبث أن حل بعد أن ظهرت نزعاته التقدمية فى وجه القيصر ومستشاريه الرجعيين ، ثم فاز فى

الانتخابات التالية ستة من اليهود بينهم صهيونى واحد .

أما فى النمسا ، فقد وضع الصهيونيون لأنفسهم نظاماً سياسياً خاصاً ، خشية أن يتهموا بالتدخل فى شئون الدولة الداخلية فى حين أنهم ينتمون لحركة دولية متشعبة ، وعلى الرغم من أن عدد نوابهم فى البرلمان النمسوى لم يتجاوز الأربعة ، إلا أن كثرة عدد الأحزاب فى الإمبراطورية العجوز ، قبيل اشتعال الحرب العالمية الأولى ، جعل بعضها ، كما كانت الحكومة تفعل أحياناً ، يستجلب اليهود إلى صفه لترجيح كفته عند الاقتراع على المسائل الخطيرة التى تعرض على المجلس التشريعى .

وقد لاح لليهود بريق الأمل بعد وقوع الانقلاب فى تركيا وانتقال السلطة إلى رجال حزب تركيا الفتاة ، بيد أن هؤلاء كانوا أشد من عبد الحميد غيرة على سيادة الدولة الإسلامية وسلامة أراضيها ، لا يقبلون بحال من الأحوال نشاط الحركات الوطنية بين الأقليات التابعة لهم ، لا سيما اليهود .

وكانت النتيجة أن أعلن الرئيس ولنسون فى مؤتمر هامبورج الصهيونى عام ١٩٠٩ أن الصهيونية لا تتعارض مع ولاء الرعايا اليهود للدولة العثمانية ، كما صرح بمواصلة العمل على تحقيق أهداف الحركة الصهيونية فى انسجام تام مع روح الدستور العثمانى ، ومع احترام القوانين والأنظمة المرعية فى الدولة التركية .

ولكن بالرغم من هذه التصريحات الرنانة والمجاهرة بالولاء للدولة لم يطرأ أى تعديل على موقف الحكومة تجاه اليهود .

هذا وقد ساد عهد رياسة ولنسون الذى دام قرابة ست سنوات ، توتر شديد بين أعضاء الحركة الصهيونية ، مبعثه الاصطدام بين أنصار الاستعمار فى فلسطين وأنصار السعى وراء الحلول السياسية ، أى بين العمليين والسياسيين بمعنى آخر ، ثم شهد المؤتمر الصهيونى الذى عقد فى لاهاى عام ١٩٠٨ تقارباً بين النظريتين المتعارضتين ، والفضل فى ذلك راجع إلى الدكتور حاييم وايزمان الذى وضع نظرية الصهيونية التحليلية على أساس القيمة السياسية للاستعمار العملى .

وكانت نتيجة ذلك إنشاء إدارة خاصة بفلسطين ضمن الهيئة التنفيذية ، واعتمد من أجلها ٢٥٪ من إيرادات المكتب المركزى ، وافتتحت الإدارة المذكورة فرعاً لها بميناء يافا أسندت رياسته لعالم اقتصادى اختص فى الشئون اليهودية الاجتماعية ، وكانت الخطوة الأولى التى اتخذها تطبيقاً للمقترحات السالفة الذكر ، تأسيس شركة للأراضى الفلسطينية ، وتخصيص قرض يقدمه البنك الوطنى اليهودى لبناء حى عصرى للمهاجرين على مقربة من يافا .

كما قرر مؤتمر لاهاى اعتبار العبرية لغة التخاطب الرسمية

بين أعضاء الحركة الصهيونية ، ثم تعميمها شيئاً فشيئاً بين الإدارات الرئيسية ؛ وقد ظهرت آثار هذا القرار فيما بعد أثناء انعقاد المؤتمر الصهيونى بفينا عام ١٩١٤ ، إذ اقتصرت لغة المداولات فى إحدى دوراته على العبرية ، على أثر إعلان الدكتور وايزمان اتجاه النية إلى إنشاء جامعة عبرية فى القدس وتأليف لجنة فرعية فى المؤتمر لدراسة الموضوع من مختلف نواحيه .

وحينما ألقى الرئيس ولنسون خطابه الذى أعلن فيه انتهاء أعمال المؤتمر ، ثم حيا الأعضاء قائلا « إلى الملتقى » لم يدر بخلده أنه لن يشهد المؤتمر التالى ، وأن البرلمان الصهيونى سينعقد فى أرض الميعاد بعد ثمانى سنوات .

بدء الاستعمار الصهيونى

فى خلال السنوات العشر التى تلت إعلان مولد الدولة اليهودية حتى بدء الاستعمار المنظم على يد الهيئة الصهيونية ، ظل الجهد الفردى محدوداً ، وتفاقم النزاع بين المهاجرين اليهود والمديرين الذين أوفدهم أدمون دى روتشيلد للإشراف على أموال البر التى رصدت لشراء الأراضى ، فأحال هذا الأخير شئون الإدارة إلى جمعية الاستعمار اليهودية ، فاستهلت نشاطها بأن وضعت نظاماً أصبحت بموجبه كل مستعمرة تتمتع باستقلالها الذاتى ، ثم عمدت إلى تبسيط الإجراءات الإدارية ، فتركت للمهاجرين قسطاً من الحرية فى مزاولة أعمالهم ، وأدخلت بعض الزراعات الجديدة ، وأنشأت مزرعة نموذجية بالقرب من الناصرة ، ومنحت القروض لمن شاء حيازة الأرض وفلاحتها مع تسهيلات فى السداد ، فأقبل عدد وفير من المهاجرين على منطقة الخليل لزراعة القمح والكروم وتربية الماشية ، إلا أن الضرائب الباهظة التى كانت تفرضها الحكومة العثمانية على غلة الأرض ، قلما كانت تترك للمهاجرين ما يسد الرمق ، ولولا ارتفاع ثمن الأراضى واستخدام الأيدى العاملة العربية الرخيصة لما بقى اليهود فى فلسطين ولهاموا على وجوههم

سعياً وراء لقمة العيش فى أية بقعة أخرى من المعمورة .

وقد كان المهاجرون الذين استقروا فى فلسطين أشد الناس خصومة لنظرية التوسع اليهودى خوفاً على مصالحهم الخاصة ، وخشية أن يكرهوا على استخدام بنى عشيرتهم بسبب ما يطالبون به من أجور مرتفعة فلا يتيسر لهم بيع غلات مزارعهم بأثمان مجزية .

وفى تلك الفترة كانت جمعية عشاق صهيون تواصل جهودها فى سبيل توطين اليهود فى الأراضى الفلسطينية ، فأنشأت مستعمرتين جديدتين ، إحداهما سميت مستعمرة بير يعقوب ، والأخرى عين غانم ، وكانت تمد كل فلاح بمبلغ صغير من المال وتبنى له مسكناً متواضعاً على مقربة من المستعمرة حتى يتسع نطاقها شيئاً فشيئاً .

ولكن على الرغم من هذه المزايا فترت حماسة الكثيرين ، وهاجر عدد كبير من أبناء المستعمرين من أرض الميعاد بسبب الضائقة الاقتصادية وعدم ضمان المستقبل .

وقد وصف الدكتور اثر روبين ، فى التقرير الذى رفعه إلى مؤتمر فينا عام ١٩١٣ ، رحلته إلى فلسطين قائلا :

« عند زيارتى لفلسطين ، شاهدت والأسى يملأ فؤادى فتور الحماسة وانعدام الثقة لدى الكثير من أبنائنا المهاجرين ، لا سيما

فى مستعمرات يهوذا والسامرية والخليل .

« وقد حاولت أن أصدر حكماً على الموقف بقلب منصف فما وجدت لها وصفاً أدق من حلول الشيخوخة قبل أوانها .

« ولا يخفى أن عدد المستعمرات الفلسطينية فى المتوسط يبلغ العشرين ، وهؤلاء الأولون الذين أقاموا صروحها على أكتافهم بدافع من الحماسة تارة وتحقيق الفائدة تارة أخرى ، رأيتهم قد شاخوا وانحلت قواهم فى دأب متواصل وعمل مضن لا جدوى من ورائه ، وليس من جيل جديد يخلفهم ويرث عنهم تلك الحماسة الملتهبة التى ملأت من قبل جوانح الأسلاف وذلك الأمل العريض الذى داعب الآباء فى تحقيق منفعة مادية .

« نقول إن الجيل الجديد هجر الأرض سعياً وراء أعمال تدر الربح فى المدن الفلسطينية وغيرها ، وها هى ذى المستعمرات وكانت فى بادئ الأمر كأشجار وارفة الظلال ، تشبه إلى حد بعيد ملاجئ العجزة .

« وماذا جنى اليهود بعد عشرين عاماً ؟ . . .

« لا شيء ، أو ما يقرب من العدم إذا قيس بالأحلام الأولى ؛ ولا علاج لذلك إلا إذا جلبنا دماء فتية من مختلف أنحاء أوربا تعيد الشباب وتنفخ فى الأرض روحاً وثابة جديدة . »

ولم يكن هذا النداء صرخة فى واد ، وإنما استنهض الهمم



وبعث ميت الأمل ، فأقبل شباب اليهود على فلسطين بعد ذلك ، وأنشأ الدكتور روبين مكتب فلسطين فى ميناء حيفا ، وفيه وضعت الوسائل الاستغلالية العملية ، كما تولى القائمون عليه إجراء المفاوضات مع السلطات التركية ؛ وكلما اتسعت دائرة نشاطه ازداد عدد الخبراء الملحقين به ، فكان منهم الزراعيون والفنيون ورجال القانون .

وكان لا بد لهؤلاء من مساكن تتوفر فيها أسباب الراحة ، فما لبث الحى المتواضع الذى أنشئ فيه المكتب أن ترامت أطرافه وتضخمت مبانيه العصرية .

وفى نفس الوقت ألف العمال اليهود حزبين ، سمى أحدهما (باولى زيون) أى (عمال صهيون) ، وأطلق على الآخر اسم (هاباولى هاتزاير) أى (الفتى العامل) ، وكان كلاهما اشتراكى النزعة ، غير أن الأول يدين بمبادىء الماركسية ، بينما يعارض الثانى فى اقتران كفاح الطبقات بالجهاد فى سبيل بعث فلسطين ، ذلكم الجهاد الذى يجب أن يقوم على أساس من التضامن بين مختلف طبقات الشعب اليهودى .

وفيما عدا ذلك كان بينهما اتفاق فى الرأى حول زراعة الأرض مباشرة دون العمل لقاء الأجر ، فضلا عن استعمال العبرية كلغة التخاطب القومية .

وقد أطلق على هذا الفريق من المهاجرين الجدد اسم (العلياء) نسبة إلى العلى من سماء المجد اليهودى القديم ، كما سادت أثناء هذه الفترة فكرة إنشاء المزارع الجماعية ، بعد أن أثبتت التجارب جدواها وثمرتها ، وهكذا سبق بنو إسرائيل أقرانهم الروس الشيوعيين فى تطبيق المبادئ الماركسية بنحو سبع سنين .

وفيما يلى بيان بالتوسع الاستعمارى اليهودى فى فلسطين .

الفترة ما بين	المساحة بالهكتار	عدد المستعمرات الزراعية	عدد السكان
١٨٨٢ – ١٨٩٩	٢٥,٠٠٠	٢١	٤٥٠٠
١٩٠٠ – ١٩٠٧	٣٣,٠٠٠	٢٧	٧٠٠٠
١٩٠٨ – ١٩١٤	٤٠,٠٠٠	٤٣	١٢٠٠٠

ففى سنة ١٩١٤ بلغ مجموع عدد اليهود فى فلسطين نحو ٩٠ ألفاً (نصفهم فى مدينة القدس) ومجموع عدد السكان ٦٩٠ لفاً .

هذا وقد لعبت الحركة الصهيونية دوراً هاماً فى توسيع نطاق الثقافة اليهودية ، وذلك عن طريق استخدام اللغة العبرية كلغة حية ، بعد نضال شديد دام عشر سنوات بين المحافظين الذين كانوا

يحتجون بأن استعمال العبرية التي نزلت بها التوراة ، كفر ما وراءه كفر ، وأهل البر الذين كانوا ينفقون على الإرساليات العلمية المختلفة التي كانت تستخدم فيها الإنجليزية تارة والفرنسية أو الألمانية تارة أخرى . هذان الفريقان كانا أشد خصوم استخدام اللغة العبرية ، بينما كان يناصرها أساتذة المدارس الأولية فى المستعمرات وبعض رياض الأطفال والمدرسة الثانوية بالقدس ، هذا إلى قلة عدد ذوى المؤهلات والخبرة فى تدريس اللغة العبرية .

وقد تطور هذا النضال بين أنصار العبرية وخصومها إلى أن أنشئ فى يافا المعهد الفنى اليهودى للدراسات العليا .

ولما كان المهاجرون قد نزحوا من مختلف أقطار العالم فقد تعذر الجمع بين أولئك الذين يتكلمون الألمانية والفارسية والعربية (من اليمن) فضلا عن الإنجليزية والفرنسية ، لذلك تقرر استخدام اللغة العبرية للتدريس فى المعهد المذكور ، وكتب النصر أخيراً لأنصارها ، بعد أن أقبل طلاب العلم من مختلف الشيع والجنسيات على المدارس العبرية والمعهد الفنى السابق الذكر .

فلسطين تحت الانتداب الإنجليزى

حينما شبت نيران الحرب العظمى عام ١٩١٤ ، لاح لليهود بريق الأمل فيما سيأتى به الغد ، ولكن ما لبث هذا الأمل أن خاب ، فقد أتت الحرب على كل ما قام به اليهود من جهد وما بذلوه من تضحية خلال الأعوام الثلاثين الأخيرة ، وانعقدت السحب فى سماء رجائهم ؛ إذ أعقب مؤتمر ڤينا الصهيونى عام ١٩١٣ وصول فوج من شباب اليهود قوامه ستة آلاف ، استقر الجانب الأكبر منهم فى أرض الميعاد ، وأتيحت فرصة العمل للكثير فى المدن ، حتى بلغ عدد سكان تل أبيب ألفى نسمة ، واتسعت مساحة الأراضي التى استعمرها اليهود ، كما ازداد عدد المدارس التى أنشأتها الهيئة الصهيونية . كان هذا حال فلسطين عشية اندلاع الحرب العظمى .

فما كاد الأتراك يربطون مصيرهم بالألمان والنمسويين ، حتى ساد فلسطين عهد من الإرهاب والاضطهاد ظل اليهود يرزحون تحته حتى خلصهم من هذا الجحيم جيش اللنبى .

لقد سلط جمال باشا قائد الجيش التركى سياط الظلم والقسوة على الوطنيين اليهود والعرب على السواء ، فلم يكتف بتدمير

المنشآت الصهيونية ومعاهدها ، وإنما أراد فى وقت من الأوقات أن يقضى على الجالية اليهودية ، اعتقاداً منه بأنها موالية للحلفاء وعين على الجرمان ، فأصدر فى يناير سنة ١٩١٥ منشوراً ضد العناصر الهدامة التى تسعى لإنشاء حكومة يهودية فى أراضى فلسطين العثمانية ، وأمر بإغلاق البنك الإنجليزى اليهودى ، وحل هيئة حراس هاشومر ، كما حرم كتابة العبرية على لافتات الحوانيت والشوارع ، وهدد بإعدام من تسول له النفس لصق طوابع البريد الصهيونية على الخطابات ، وجرد المستعمرات من الأسلحة ، وخير كل يهودى من رعايا الحلفاء بين الخدمة فى صفوف الجيش التركى والرحيل عن البلاد ، فهاجر إلى مصر عدة آلاف من اليهود . وقصارى القول أن البلاد اجتاحتها موجة من الإرهاب والعسف ، وامتلأت السجون ، وشنق خلق كثير .

وعند ما بدأت قوات الحلفاء تزحف على جنوب فلسطين ، أخلى الترك مدينة تل أبيب من سكانها وساقوهم إلى المعتقلات فى الشمال ، فمات فى الطريق عدد كبير منهم ؛ كما هلك كثير ممن أودعوا المعتقلات جوعاً وتعذيباً ؛ وكانت الطامة الكبرى غارة الجراد على فلسطين عام ١٩١٧ فأتى على الحرث والنسل .

هذا وقد شطرت الحرب العالم الصهيونى إلى ثلاثة أقسام ، فكان منهم فريق الحلفاء ، ورعايا الدول المعادية ، ثم المحايدون .

ولما كان المسئولون الصهيونيون فى برلين حريصين على أن يظلوا على اتصال بمختلف المنظمات اليهودية فقد أنشأوا مكتباً فى كوبنهاجن، وانتقل مكتب كيرين كايميت المركزى من مدينة كولونيا إلى لاهاى .

ولما كانت الهيئة الصهيونية منظمة دولية أعضاؤها يعملون فى صفوف الحلفاء والجرمان على السواء ، فقد راعت الحياد ، ولكن فريق اليهود الذين هاجروا من فلسطين إلى مصر أعلنوا عن رغبتهم فى الانضمام لجيوش الحلفاء ؛ وكان الباعث على هذه الحركة ضابط يهودى يدعى ترامبلدور ، فقد ساعده أثناء حرب الروس مع اليابان عام ١٩٠٥ . وحفزه على ذلك الرأى إيمانه بأن هذا العمل من جانب اليهود من شأنه تزكية مطالبهم وتعزيز أمانيهم الخاصة بإنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين غداة انتهاء الحرب .

وقد تألفت على الأثر أورطة قوامها ٩٠٠ رجل تحت قيادة الكولونيل باترسون ، أطلق عليها اسم فرقة (راكبى البغال الفلسطينية) وأدت للانجليز ، أثناء حملة غاليبولى ، خدمات جليلة ، ثم صدر الأمر بتسريح رجالها فى مارس ١٩١٦ .

وبعد ذلك قام فلاديمير جابوتنسكى بحملة فى لندن لتأليف فيلق يهودى ؛ وعلى الرغم من اعتراض الدوائر الصهيونية الإنجليزية تحققت الفكرة ، وأنشئ على أثر ذلك الآيان انضما إلى فرقة

(حملة البنادق الملكية) ، ولكى يمكن التمييز بينهم وبين رجال الفرقة الآخرين ، كان اليهود يحملون شارة داود وعلماً خاصاً بهم .

وفى ٨ ديسمبر ١٩١٧ دخل اللنبى مدينة أورشليم مترجلا على رأس جيوشه ، فشاع الفرح بين اليهود وبلغت الحماسة ذروتها ، فأقبل على مكاتب التجنيد ألف رجل آخرون تطوعوا فى خدمة الجيش الإنجليزى ، وتألف منهم آلاى ثالث ، فبلغ عدد القوات اليهودية حينذاك خمسة آلاف ، واشترك فريق منهم فى مطاردة فلول الجيش العثمانى ، ولم تمض سنة حتى كانت الأراضى الفلسطينية وما وراء نهر الأردن قد تطهرت من العناصر المعادية ، وهكذا انقضى عهد الأتراك بعد أن دام ثلاثة قرون .

وفى هذه الأثناء كان الصهيونيون الإنجليز قد توقعوا هزيمة الدول الجرمانية ، فلاحت لهم بارقة أمل فى نيل الأمانى التى طالما داعبت أحلام بنى إسرائيل .

ولم يكن فى إنجلترا وقتذاك عضو يمثل الهيئة التنفيذية الصهيونية ، وكان لزاماً على أحد المبرزين من اليهود الإنجليز أن يتولى العمل على تحقيق أغراض الصهيونية السياسية ، فانبرى الدكتور حاييم وايزمان (أستاذ الكيمياء بجامعة مانشستر) ،



يدافع عن القضية ، وتمكن بواسطة مستر سكوت صاحب امتياز جريدة مانشستر جارديان من الاجتماع باثنين من أوسع أعضاء الحكومة البريطانية نفوذاً (لويد جورج ، وهربرت صامويل) ، وشرح لهما قضية اليهود ، كما أطلعهما على أمنيتهم العزيزة ؛ فأصغيا إليه وأسبغا على المطالب اليهودية عطفاً .

وقد تمت هذه المقابلة خلال فترة كانت إنجلترا تعانى فيها نقصاً من مادة الأسيتون اللازمة لصناعة المواد المتفجرة ؛ وكان لويد جورج آنذاك رئيساً للجنة الذخائر ، فأوعز إلى وايزمان أن يجرى تجارب خاصة لإنتاج الأسيتون على أوسع نطاق ، فلم تنقض عدة شهور حتى جاء وايزمان يعرض على صديقه لويد جورج نتيجة أبحاثه .

وفيما يلى نورد نص الحديث الذى دار بين الرجلين فى هذه الجلسة على لسان لويد جورج ، قال :

قلت له : « إنك قد أديت للدولة خدمة عظيمة ، وأود أن أطلب إلى رئيس الحكومة أن يوصى بك عند صاحب الجلالة فينعم عليك بوسام رفيع . »

فأجاب قائلا : « إنى لا أريد شيئاً لنفسى . »

قلت : « ألا نستطيع أن نقدم لك شيئاً عرفاناً بجميلك وما قدمت يداك لهذا البلد ؟ »

قال : «بلى ، أريد أن تعملوا شيئاً من أجل الشعب الذى أنا واحد من بنيه . »

وراح يفيض فى شرح مطالب اليهود العزيزة على قلوبهم ، ثم أشار إلى أن ما يرجونه هو توطينهم أرض فلسطين المقدسة التى خلف لهم فيها آباؤهم ذكريات خالدة .

هذا هو الأصل فى إنشاء وطن لليهود فى فلسطين ، وما جاء على لسان بلفور فى وعده المعروف .

ومضى لويد جورج فى مذكراته يقول : « لقد شد وايزمان أزر بريطانيا وقت المحنة ، وساهم فى تحقيق النصر ، فترك أثراً لا يفنى فى خريطة العالم . . . . » .

وفى أوائل عام ١٩١٥ عرض صامويل على لورد أوكسفورد الذى كان رئيس الوزراء وقتئذ مشروعاً وصفه هذا الأخير فى مذكراته (بالمشروع الشاعرى) ، وكان يقضى بأن يعمل الإنجليز عند تقسيم تركة الأتراك على ضم الأراضى الفلسطينية لأملاكهم ثم إقطاعها لليهود المشردين فى سائر أنحاء العالم .

وجاء لهذا الموضوع ذكر فى يوميات لورد بيرتى الذى كان إذ ذاك سفيراً لبريطانيا فى باريس : فقد قال « بعث إلىّ إدمون دى روتشيلد برجل روسى يهودى من سكان مانشستر ؛ جاء يصدع أذنى بمقترحات سخيفة ؛ وعلى الرغم مما ذكره من

موافقة جراى ولويد جورج وصامويل وكرو ، فإنه لم يذكر اسم لورد ريدنج ...

« ويريد الشخص المذكور إقامة دولة يهودية فى فلسطين تحت حماية إنجلترا وفرنسا وروسيا ، ولو أنه يؤثر أن تكون تحت الحماية الإنجليزية دون غيرها . »

على أن الحكومة البريطانية أظهرت فى ربيع ١٩١٦ أنها تنظر إلى المسألة بعين الجد ، فكتبت إلى سفيرها ببتروجراد أن يفاتح سوزانوف وزير خارجية روسيا ويتوسط لديه باسم سير إدوارد جراى أن ينظر إلى مسألة الوطن القومى اليهودى بفلسطين نظرة الرعاية والعطف .

وفى عام ١٩١٦ عين الدكتور وايزمان رئيساً لمعامل الأميرالية البحرية فى لندن ، مما أتاح له فرصة الاتصال بلورد بلفور الذى كان إذ ذاك وزيراً للبحرية ، وأثار اهتمامه بشئون اليهود وما يطمحون إليه ، وقد أصغى إليه الوزير ، نظراً لأن المشكلة دخلت فى هذا الوقت فى نطاق سياسة بريطانيا العملية .

وقامت لجنة فلسطين الإنجليزية من جانبها بجس نبض عدة جهات مسئولة ، كما أصدرت جريدة فلسطين بالإنجليزية حتى تستميل الرأى العام وتكسب عطفه على القضية .

وتقدم الزعماء الصهيونيون ببرنامج خاص بإدارة فلسطين

وتوطين اليهود فيها مستوحى من مبادئ الحركة الصهيونية ، وكان أهم ما اشتمل عليه من نقاط ، الاعتراف لليهود بجنسية على حدة ، واستقلالهم فيما يتعلق بالمسائل التى تخص اليهود دون غيرهم ، وتأسيس شركة ذات امتياز تتولى شراء الأراضى الفلسطينية وتوطين المستعمرين فيها .

ولا يعلم أحد أوافقت الحكومة الإنجليزية على هذا البرنامج أم لم توافق ؛ وعلى كل حال فإن الاهتمام بقضية اليهود كان يزداد تبعاً لاطراد تطورات الحرب لمصلحة الحلفاء ، ولا عجب ، فإن الإنجليز يعطفون على اليهود منذ حكومتى بالمرستون وشافتز برى ، وآية ذلك ما سبق أن ذكرناه من عرض جزء من أراضى شرق أفريقيا على اليهود ، هذا إلى أن مستقبل فلسطين يهم دون شك بريطانيا التى تعتبر سلامة مصر وقناة السويس محل عنايتها فى المقام الأول .

ولقد تطورت المحادثات التمهيدية بين الصهيونيين والساسة الإنجليز واتخذت الطابع الرسمى الحقيقى أثر تعيين لويد جورج رئيساً للوزارة وإسناد وزارة الخارجية للورد بلفور .

وجاءت اللحظة الحاسمة فى ٧ فبراير ١٩١٧ حينما دخلت المفاوضات الخاصة بإنشاء دولة يهودية فى فلسطين فى دورها النهائى .

وكانت بقية الدول المتحالفة قد أحيطت علماً بالمشروع

الذى اختمر فى إنجلترا وأيدت هذه الدول عطفها عليه .

ولكن نزاعا نشب فى ذلك الوقت بين أنصار نظرية اندماج اليهود فى الشعوب التى يعيشون بين ظهرانيها وبين أقطاب الحركة الصهيونية ، وكتب النصر أخيراً لوايزمان ، إذ اعترفت حكومة لندن بحق اليهود فى استيطان فلسطين ، وبعث بلفور برسالة رسمية إلى روتشيلد يقول فيها .

« عزيزى لورد روتشيلد

يسرنى أن أبعث إليكم باسم حكومة جلالة الملك ، هذا التصريح المشوب بالعطف على الأمانى الصهيونية ، والذى عرض على الحكومة ووافقت عليه .

تعتزم الحكومة البريطانية إقامة وطن للشعب اليهودى فى فلسطين ، وستبذل كل ما لديها من جهد فى سبيل تحقيق هذه الغاية ، هذا مع العلم بأن حكومة جلالة الملك لن تفعل شيئاً ينطوى على أى مساس بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية فى فلسطين ، ولا بحقوق اليهود الذين يعيشون فى دول أجنبية أو نظم أحوالهم الشخصية .

وأكون لك شاكراً لو تكرمت بإبلاغ هذا التصريح إلى اتحاد الهيئات الصهيونى . »

إمضاء

(أرثر جيمس بلفور)

ومن الجلى أن ما حفز الحكومة البريطانية على إذاعة نص هذه الوثيقة التاريخية التى سميت فيما بعد « وعد بلفور » ، اعتبارات قائمة على مثل عليا وأسباب مادية ، فنى الوقت الذى كانت فية صادقة الرغبة فى مساعدة اليهود على تحقيق أمانيهم القومية ومباشرة حقهم فى تقرير مصيرهم ، كانت تراعى أيضاً ما سيترتب على هذا التصريح من آثار فى الأوساط اليهودية الأمريكية التى كان عطفها على قضية الحلفاء فى تلك الفترة العصيبة من الحرب لا يقدر بثمن .

وهذا ما اعترف به لويد جورج نفسه أمام لجنة فلسطين الملكية عام ١٩٣٧ ، إذ أعلن أن الغرض من إصدار هذا التصريح كان لأسباب تتعلق بالدعاية واستدرار عطف اليهود الذى كان كفيلا بترجيح كفة الحلفاء أثناء الفترة الدقيقة التى كانت تجتازها جيوشهم فى خريف ١٩١٧ .

وقد هلل يهود العالم لهذا التصريح وكبروا ، وبلغت حماستهم حداً من الهوس ؛ إذ أيقنوا أن إعلانه قد وضع حداً لآلامهم وجاء محققاً لتنبؤات كتابهم المقدس .

ولقد كانت عبارة « وطن يهودى » غريبة عن الأسماع ، بعيدة عن مرامى الصهيونية التى كانت تهدف إلى إقامة دولة يهودية ، إلا أنها اعتبرت نقطة تحول فى تاريخ إسرائيل ، وأما

فيما يتعلق بالشرطين الواردين فى التصريح فقد قيل فى تأويلهما إن وضعهما مقصود به مواجهة اعتراض عرب فلسطين الذين قد يخشون افتياتاً على حقوقهم الشرعية ، واعتراض اليهود الذين يعيشون خارج الأراضى الفلسطينية ويخشون أن يؤثر هذا فى الأوضاع السياسية المرسومة لهم فى سائر الدول .

وقد رؤى أيضاً عند تفسير عبارة « الوطن القومى » أنها تقترن بحقوق سياسية خاصة ، لأنه لو أريد لليهود إقامة فى فلسطين شأنهم فى ذلك شأن بقية المهاجرين لما كانت الحاجة تدعو إلى هذا النص الصريح .

وقد أصبح هذا التصريح سارياً بعد أن اعتمدته الدول الحليفة وأقره الكونجرس الأمريكى بعد أربع سنوات حينما عرض على مجلس عصبة الأمم مسألة الانتداب الإنجليزى على فلسطين .

ولا يخفى أن هذا التصريح قد أحدث أثراً عميقاً فى معسكر الدول المعادية ، فلم يمض أسبوعان على إعلانه حتى اجتمع وزير خارجية النمسا بأحد الأقطاب الصهيونيين ، ووعده باستخدام نفوذه لدى الأتراك بعد انتهاء الحرب ؛ وبعد ستة أسابيع اجتمع طلعت باشا الصدر الأعظم بصحفى يهودى ووعده بإطلاق حرية الهجرة لليهود ومنحهم حق التبادل التجارى والاقتصادى الحر ، وحق نشر ثقافتهم العبرية ؛ على أن طلعت احتاط للأمر فلفت النظر إلى أن

هجرة اليهود يجب أن تتمشى طبعاً مع طاقة الأرض وما يمكن أن تستوعبه من الناحيتين الزراعية والاقتصادية ، ثم أشار إلى وعد بلفور بلهجة تنم عن الاحتقار والسخرية كما لو كان أكذوبة صارخة ، وتلا التصريح التركى وعد رسمى بذله وزير خارجية ألمانيا لوفد من الصهيونيين يؤيد به تصريح الأتراك فى ٥ يناير سنة ١٩١٨ غير أن نصف الأراضى الفلسطينية كانت وقتذاك قد وقعت فى قبضة الجنرال اللنبى ولم يعد ثمة شك فى أن نصفها الثانى سوف تجتاحه القوات الإنجليزية بعد قليل .

وكانت أولى النتائج التى حصل عليها الزعماء الصهيونيون إثر إعلان تصريح بلفور أن أذنت الحكومة الإنجليزية بإيفاد لجنة خاصة إلى فلسطين ،على رأسها الدكتور وايزمان ، وتضم أعضاء يمثلون يهود بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، ولكى تتسم بطابع رسمى انضم إليها القومندان أورمسبى جور ، كما عين مساعداً له القومندان جيمس روتشيلد ، وكلاهما من أعضاء مجلس العموم .

وكانت هذه اللجنة تمثل الهيئات الصهيونية حتى شهر سبتمبر عام ١٩٢١ ، حينما عين المؤتمر الثانى عشر هيئة تنفيذية لفلسطين خلفاً لها .

ولما كان من مهام اللجنة الخاصة العمل على إقامة علاقات ودية بين اليهود والعرب ، فقد سافر وايزمان وأورمسبى جور إلى

العقبة لمقابلة الأمير فيصل بن الحسين شريف مكة .

وكان الأمير قد أعلن الثورة فى وجه الأتراك ، بعد أن اتصل بماكماهون المندوب السامى البريطانى بالقاهرة ووعده هذا الأخير باسم حكومته بمنح الاستقلال للعرب الذين يقدمون مساعدات فعالة للحلفاء ، ولم يرد فى التحديد الجغرافى الذى وضعه ماكماهون إذ ذاك للأراضى التى ستفوز باستقلالها ذكر لفلسطين ، ولعل ذلك راجع إلى عدم ثورة عرب فلسطين على الحكم التركى وعدم إسدائهم المعونة للحلفاء .

وأدرك فيصل أن فلسطين لا تدخل ضمن الأراضى التى ستضم للدولة العربية الهاشمية عندما زار لندن ووقع بصفته مندوباً عن الدولة العربية اتفاقية مع وايزمان بوصفه ممثلا لفلسطين .

اتساع نطاق الصهيونية وتدعيمها

إن الحرب العظمى التى انتهت بتخويل اليهود حق استيطان فلسطين ، كان من نتائجها أيضاً أن حرم عدد كبير منهم من مباشرة هذا الحق أو المساعدة على تطبيقه ، وذلك بسبب التغييرات السياسية التى طرأت على العالم فى أعقاب الحرب ، والظروف الاقتصادية التى كانت تحيط بفريق آخر من اليهود .

فيهود روسيا الذين وضعوا أسس الصهيونية انقسموا إلى فريقين ، فريق يبلغ تعداده ثلاثة ملايين ظلوا تحت حكم السوفيت ، وانفصمت كل رابطة بينهم وبين أبناء جلدتهم فى سائر أنحاء العالم ، كما قتل مائة ألف منهم فى مذابح أوكرانيا خلال عامى ١٩١٨ ، ١٩١٩ ، وأصدرت السلطات الروسية قوانين تحرم الانتماء إلى الصهيونية باعتبارها حركة معادية لمبادئ الثورة .

والفريق الآخر من اليهود الذين كانوا يعيشون فى بولندا (وعددهم ثلاثة ملايين) كانوا يتمتعون بكامل الحرية فيما يتعلق بنشاطهم الصهيونى ، إلا أن ظروفهم المادية كانت تحول

دون المساهمة فى إقامة الوطن الصهيونى ، وقس على ذلك حالة هؤلاء الذين كانوا يعيشون فى الدويلات التى ظهرت ، أمثال لتوانيا واستونيا وليتونيا وسكان بسارابيا التى ضممت إلى رومانيا .

أما يهود ألمانيا الذين قاسوا ويلات الحرب فلم يعد فى طاقتهم أن يساعدوا على نصرة القضية الصهيونية ، فكان لزاماً والحالة هذه أن يتحمل العبء الأكبر يهود الدول الغربية ، لاسيما أولئك الذين ينتمون إلى الدول الناطقة بالإنجليزية .

وهكذا تألفت فى بريطانيا والممتلكات المستقلة (الكومنولث) جمعيات عدة أعلنت تعلقها بالمثل الأعلى الصهيونى .

واتسع نطاق الحركة فى مختلف أنحاء الولايات المتحدة حيث وجدت أنصاراً لا حصر لهم ، كما امتدت إلى دول الشرق وشمال أفريقيا .

فإذا استثنينا الاتحاد السوفيتى لم تكن الصهيونية محرمة إلا فى تركيا التى انتزعت منها فلسطين ، وفى العراق تضامناً مع عرب فلسطين .

وقد عقد الصهيونيون مؤتمراً فى لندن خلال شهر فبراير ١٩١٩ اشتركت فيه وفود من مختلف الدول المحالفة والمحايدة ، وتخلف عنه يهود ألمانيا اضطراراً ، فتقرر تعيين الدكتور وايزمان رئيساً للهيئة التنفيذية ، اعترافاً بالخدمات الجليلة التى أداها لقضية



الصهيونية ، كما تقرر إنشاء مكتب مركزى فى لندن يتولى الشئون الثقافية والسياسية والمالية والهجرة .

وحدب المؤتمر على حالة اليهود الذين يعيشون فى أوربا الوسطى والشرقية ، فرأى ضرورة اتخاذ التدابير الكفيلة بمساواة اليهود فى الحقوق المدنية مع سائر الرعايا ، واتخذ فى ذلك الصدد قراراً يقضى باعتراف الدول لليهود بحقوق المواطنين واعتبارهم أقلية وطنية وجزءاً لا يتجزأ من الأمة .

وما كاد مؤتمر لندن ينفض حتى تألفت فى مختلف الدول مجالس قومية يهودية للعمل على تنفيذ قرارات المؤتمر ، وتحديد المقترحات الخاصة بحقوق الأقليات اليهودية ، تمهيداً لرفعها إلى مؤتمر الصلح بباريس .

وقد اعترف المؤتمر بحقوق الأقليات الدينية والبشرية وغيرها ، واعتبرت من بين التزامات القانون الدولى ، وعهد إلى عصبة الأمم بتطبيقها ، ولكن بعض الدول ما لبثت أن وطئت هذه الحقوق بأقدامها .

ويتضح من بنودها ، بما لا يدع مجالا للشك ، أنه يعتبر الأراضى الفلسطينية مخصصة لاستعمار اليهود ، كما يعتمد على مساعدة « المنظمة الصهيونية » فى إنعاش اقتصاديات الدولة العربية الهاشمية .

وفى ٦ فبراير أشار الأمير فيصل رئيس وفد الحجاز فى مؤتمر الصلح إشارة رسمية إلى فلسطين ، حينما ذكر أنه يترك مسألة فلسطين ، ذات الطابع الدولى ، يتولى دراستها ذوو الشأن وفيما عدا ذلك طالب باستقلال المناطق العربية التى وردت تفاصيلها فى المذكرة التى رفعها الوفد الحجازى .

وفى ١٣ فبراير وقف شكرى غانم رئيس الوفد السورى أمام المؤتمر مطالباً بإنشاء دولة ديمقراطية مستقلة فى سوريا ، أما عن فلسطين فقد صرح بأنها تعتبر الجزء الجنوبى من سوريا إلا أن الصهيونيين يطالبون بها ، ولما كان السوريون قد قاسوا من الآلام مثل ما قاسى اليهود ، فإنهم يتركون لهم أبواب فلسطين مفتوحة مصاريعها ، وليأت إليها كل من عانى الاضطهاد وذاق العذاب ، ولتمنح استقلالا ذاتيا ، على أن تنضم إلى سوريا على صورة اتحاد فيدرالى . فهل يكتفى اليهود بذلك ؟ إن الاستقلال الذاتى يكفل لهم السيادة إذا كانت لهم الأغلبية ، وإلا فسيكون لهم نواب يمثلونهم ويدافعون عن مصالحهم .

وكان الصهيونيون قد تقدموا إلى مؤتمر الصلح بمذكرة أبرزوا فيها حقوق اليهود التاريخية فى فلسطين ، ومطالبهم الخاصة بإنشاء دولة مستقلة فيها ، ولكن كان أمام المؤتمر آلاف من المشاكل يتعين حلها والبت فيها مما ترتب عليه أن تغير مستقبل فلسطين

عاماً كاملا أصيبت فيه المصالح الصهيونية بأضرار جسيمة من جراء موقف الحكومة العسكرية الذى كان مناقضاً كل التناقض لكل ما كانت تصدره لندن من تعليمات أو تشير به من توجيهات .

والسبب فى ذلك راجع إلى عدم إذاعة تصريح بلفور بصفة رسمية ، والتزام حكومة فلسطين العسكرية بالوضع الراهن وقتذاك بين العرب واليهود .

وكانت فى دمشق « لجنة قومية » عربية تعارض فى وضع سوريا تحت الانتداب الفرنسي وفلسطين تحت الانتداب الإنجليزى ، فأعلنت الأمير فيصل ملكاً على سوريا وفلسطين ، وقامت مظاهرات معادية لليهود فى كل من القدس ويافا ، ثم اشتد الهياج عند اقتراب عيد الفصح ، وكانت الطامة الكبرى عندما سار اليهود فى الموكب التقليدى احتفالا بذكرى النبي موسى ، وعلى الرغم من علم السلطات باحتمال حدوث قلاقل واضطرابات فإنها لم تحرك ساكناً ولم تتخذ أية تدابير حاسمة فى سبيل منع الاعتداء ، مما ترتب عليه اشتباك اليهود والعرب فى معركة دامت ثلاثة أيام أسفرت عن قتل ستة من اليهود وعربى واحد .

وقد خاب أمل اليهود فى السلطات العسكرية بعد إلقاء

القبض على عدد من منظمى الحفل الدينى ثم صدور الحكم عليهم بالسجن .

وكانت هذه الحوادث سبباً فى استعجال القرار الذى طالما انتظره اليهود ، ففى ٢٤ أبريل سنة ١٩٢٠ ، اجتمع المجلس الأعلى لمؤتمر الصلح بمدينة « سان ريمو » ، وكان ممثلا بريطانيا فيه لويد جورج ولورد كرزون وتقرر إدماج تصريح بلفور فى طلب معاهدة الصلح مع تركيا ووضع فلسطين تحت الانتداب الإنجليزى .

وعلى ذلك لم يعد هناك ما يعوق نهاية الحكومة العسكرية وإحلال الإدارة المدنية مكانها ، فعين هربرت صامويل أول مندوب سام بفلسطين فى أول يوليو ١٩٢٠ مستهلا بذلك عهداً جديداً طالما طمحت إليه قلوب اليهود .

ثم عقد اليهود فى لندن أكبر مؤتمر صهيونى (فى يوليو ١٩٢٠) شهده ٢٥٠ مندوباً عن مختلف الهيئات الصهيونية المنتشرة فى سائر أنحاء العالم ، وأعيد انتخاب وايزمان رئيساً للهيئة التنفيذية ، كما اتخذت القرارات الكفيلة بالانتقال من المرحلة السياسية إلى المرحلة العملية الخاصة بالوطن اليهودى ، فضلا عن القرارات المتعلقة بتدعيم الوسائل المالية للتوسع فى استعمار الأراضى الفلسطينية .

وعقد المؤتمر الصهيونى التالى بمدينة كارلسباد فى أواخر ١٩٢١ ، وشهد جلسة الافتتاح سير جورج كلارك السفير البريطانى ببراج ، الذى قدم للمؤتمر رسالة تهنئة من حكومة لندن أيدت فيها تصريح بالفور ، فقوبلت بعاصفة من الهتاف.

وقد شهد هذا المؤتمر ٤٤٥ مندوباً يمثلون ٧٧٠ ألف عضو صهيونى ممن يدفعون الاشتراك السنوى (الشلن المعهود) فى مقابل ١٢٩ ألف عضو كانوا ممثلين فى المؤتمر الصهيونى الذى عقد فى ١٩١٣ .

وكانت فلسطين قد شهدت فى هذه السنة اضطرابات شديدة وأحداثاً دموية وقعت بين العرب واليهود ، فاتخذ المؤتمر قراراً استنكر فيه هذا الاصطدام بين شعبين ساميين ، كما ناشد الهيئة التنفيذية مضاعفة الجهود فى سبيل عقد اتفاق شرف بين اليهود والعرب يتمشى مع قرار المؤتمر وتصريح بلفور .

وفى الجلسة الختامية انتخب أعضاء الهيئة التنفيذية الثلاثة عشر وعلى رأسهم الدكتور وايزمان ، واختير من بينهم ستة يتولون أعمال الهيئة التنفيذية بمدينة القدس .

* * *

والآن فلنستعرض الأحزاب اليهودية وكيف تطورت .

لم يكن فى فلسطين قبل اشتعال الحرب العظمى الأولى

إلا حزبان اشتراكيان كما سبق أن ذكرنا ، أحدهما (باولى زيون) والآخر (هاباولى هاتزاير) . هذا إلى حزب ثالث يدعى (زيرى زيون ، أى صهيون الفتية) تألف فى أوربا الشرقية وكان يعتمد على الطبقة الوسطى ذات الدخل الضئيل وأصحاب الحرف اليدوية دون طبقة العمال ، وقد اندمج هذا الحزب فيما بعد (١٩٢٠) فى حزب هاباولى هاتزاير وأطلق عليه اسم (العمال الاشتراكيين اليهود) ، وكان يمثل الأفكار التقدمية الاشتراكية .

وفى ١٩٣٢ اندمج الحزبان الاشتراكيان الكبيران وأصبح اسم الحزب الجديد (الوحدة) ثم درج اليهود على تسميته (باولى زيون) .

وفى ١٩٣٤ نشأ حزب جديد يدعى (هاشومير هاتزاير ، أو الحارس الفتى) . ويختلف عن سابقه بمبادئه الماركسية المتطرفة ، وإيثاره لمبدأ الدولة ذات الجنسيتين ، ويؤيده فى هذا المذهب الجناح الأيسر من حزب (باولى زيون) الذى انتظم فيما بعد فى صفوف المنظمة الصهيونية العالمية مع انفراده بآراء ومبادئ خاصة .

ولا تميز الصهيونية بين الجنسين ، لذا يجوز انتخاب المرأة فى المجالس أو تعيينها فى المناصب .

وهناك منظمة صهيونية عالمية للنساء تتعاون تعاوناً وثيقاً مع سميتها الأخرى فى ميدان الثقافة والمزارع النموذجية النسائية والتربية النسوية المنزلية .

فلسطين تحت الانتداب

لقى تعيين هربرت صامويل اليهودى فى منصب المندوب السامى الأول لفلسطين ترحيباً منقطع النظير فى الأوساط الصهيونية ، إذ اعتبرت هذا التعين رمزاً لتحقيق الأمانى العريضة ، ولما سيأتى به الغد من أحداث ؛ كما أنعش الأمل فى زوال العداء للصهيونية الذى كانت تتسم به الإدارة العسكرية الإنجليزية فى فلسطين . وحينما ذهب هربرت صامويل إلى القدس لمناسبة عيد الصوم الكبير وقف فى المعبد يستهل تلاوة التوراة بآى « عز نفسك . . . عز نفسك اليوم يا شعبى » فتختلج القلوب وتترقرق الدموع فى المآقى ، وكأن شمس الخلاص قد آذنت بالشروق .

ولكن تلك الحماسة التى سرت إلى النفوس مالبثت أن فترت إثر الأحداث التى أعقبت هذه الفترة السعيدة ، فقد اختار المندوب السامى ، الجنرال ديلز المعروف بنزعته الصهيونية مساعداً له ، وعدداً من كبار الموظفين المشهود لهم بالكفاءة والحنكة ؛ إلا أن رجال الإدارة الثانويين كانوا فريقين ، فريق لا يخفى استخفافه بالحركة الصهيونية ، وفريق آخر يمالئ العرب



على حساب اليهود .

وتألفت فى أوائل عهد الانتداب لجنة استشارية تضم ١٢ موظفاً وعشرة من المدنيين من بينهم ٤ من المسلمين وثلاثة من المسيحيين ومثلهم من اليهود ، وكانت اللجنة المذكورة تتيح فرصة التشاور بين كبار الموظفين الذين يمثلون الطوائف الدينية الثلاث حول مضمون القرارات التى تنوى الحكومة إصدارها ، كما كان يعرض على بساط البحث فيها المسائل الخاصة بنقل ملكية الأراضى والهجرة وإنشاء الطريق والتعليم والصحة وغيرها .

وقد اتخذت حكومة الانتداب منذ البداية قرارين هامين بالنسبة لليهود ، أولهما الاعتراف باللغة العبرية لغة رسمية ، شأنها شأن اللغتين الإنجليزية والعربية ، فكانت القرارات والمنشورات الحكومية تصدر باللغات الثلاث ؛ أما فى المحاكم فكانت المرافعات الشفوية أو المكتوبة تتلى أو تكتب بأية لغة من هذه اللغات على السواء

وكان اليهود يريدون ترجمة كلمة « فلسطين » بالعبرية بكلمة « ايرز إيزرائيل » أو أرض إسرائيل ، ولكن العرب اعترضوا على هذه التسمية بحجة أنها تحمل فى طياتها اتجاهاً سياسياً ، فتقدم المندوب بحل وسط يرضى الطرفين ، بأن يضاف إلى كلمة (فلسطين) الحرفان الأولان من التسمية العبرية ،

فتصبح على هذا الشكل (فلسطين إ . إ .) . وقد استعملت فى طوابع البريد والعملة وجميع الوثائق الرسمية .

وقد عين فى فلسطين زعيمان روحيان لليهود ، أحدهما للمحافظين والآخر للاشكنازى .

أما فيما يتعلق بالمسلمين – بعد وفاة المفتى الأكبر كمال أفندى الحسينى ، وكان أحد أفراد أسرة النشاشيبى المعادية لأسرة الحسينى يحتل منصب عمدة القدس – فقد رأى المندوب السامى أن يعهد بمنصب الإفتاء إلى الحاج أمين الحسينى (مفتى فلسطين الأكبر) .

وقد حدث بعد طرد فيصل من سوريا أن غزا عبد الله بن الحسين الأراضى الأردنية ليثأر لأخيه فيصل ؛ وعقد فى القاهرة مؤتمر ضم ونستون تشرشل (الذى كان وقتذاك وزيراً للمستعمرات الإنجليزية) والكولونيل لورانس ، وهربرت صامويل ، وقد دعى عبد الله لمقابلة تشرشل الذى أبلغه بأن الاعتراف بولايته على الأردن رهن بعدم الاعتداء على الحدود السورية ، وقبوله مستشاراً إنجليزياً ، مع منحه إعانة سنوية من حكومة لندن .

ولما قبل عبد الله وأعلن أميراً على شرق الأردن ، أصبحت المواد الواردة فى التصريح الخاص بالوطن القومى اليهودى غير ذات موضوع فيما يتعلق بالأراضى الفلسطينية الواقعة شرقى نهر الأردن ،

وجاء هذا القرار الذى انتزع ثلثى مساحة الأراضى الفلسطينية مخيباً لآمال اليهود فى سادتهم الإنجليز .

وفى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٠ استقبل تشرشل فى القدس وفداً عربياً جاء يطالب بالعدول عن مبدأ الوطن اليهودى ، ووقف الهجرة ، وتأليف حكومة مسئولة أمام البرلمان ؛ فرفض تشرشل ؛ بحجة أن بريطانيا خلصت الأراضى الفلسطينية بقوة السلاح ، وذكر أن نجاح اليهود فى مشروعاتهم الإنشائية سيساعد على رفاهية البلاد وازدهارها اقتصاديا .

ثم استقبل فيما بعد وفداً يهودياً جاء للإعراب عن شكر الصهيونيين لبريطانيا وعرفانهم بأياديها ، كما أكد أعضاء الوفد رغبة اليهود فى توطيد الصداقة والتعاون مع العرب ؛ بيد أن هذه الرغبة لم تكن متبادلة ، إذ هاجم العرب يهود يافا والمستعمرات القريبة منها ، وقامت بين الفريقين معركة مبيدة أسفرت عن ٩٥ قتلى (٤٨ من اليهود و ٤٧ من العرب) و ٢١٩ جريحاً (٧٣ عربياً و ١٤٦ يهودياً) . وقبضت السلطات الإنجليزية على عدد من المسئولين فأودعوا السجن مدداً متفاوتة .

وكان من نتيجة هذا الانفجار أن توقف سيل الهجرة اليهودية بعض الوقت .

وجاء فى تقرير لجنة التحقيق التى تألفت لتقصى أسباب

هذه الاضطرابات ، أنها راجعة إلى سخط العرب ونقمتهم على هجرة اليهود ، وعجز رجال البوليس لعدم كفاية تدريبهم على أعمال القمع ، بل لانحياز بعضهم إلى العرب . وكان من أثر ذلك أن تألفت قوة جديدة من رجال البوليس الملكى الإيرلندى أحضرت خصيصاً من بريطانيا لمواجهة ما قد يحدث من قلاقل ؛ والواقع أن هذه القوة أفادت فى حفظ الأمن ، فلم تقع اضطرابات جديدة خلال عدة سنوات .

ولم يلبث المندوب السامى أن دعا بعض أعيان العرب وأوضح لهم أن سياسة الوطن القومى اليهودى ليس معناها أن إنجلترا تعتزم فرض حكومة صهيونية على الأغلبية العربية ، غير أن العرب لم يطمئنوا لهذا التصريح ، فبعثوا بوفد منهم إلى لندن للاتصال بالحكومة البريطانية مباشرة ، واجتمع أعضاء الوفد بكبار المسئولين فى وزارة المستعمرات ، مكررين مطالبهم السابقة ، اعتماداً على حملة بعض الصحف اللندنية التى كانت تطالب بنزول الحكومة الإنجليزية عن صك انتدابها لإدارة شئون فلسطين والعراق ، بحجة أن هذين البلدين يعتبران عبئاً باهظاً يثقل كاهل دافع الضرائب الإنجليزى .

ولكن المسئولين رفضوا مطالب العرب ، وعرضوا عليهم أن يحل مكان المجلس الاستشارى مجلس تشريعى يضم

أغلبية من الأعضاء المنتخبين ، قوامها ١٢ عضواً من بينهم ثمانية أعضاء مسلمون ، واثنان من المسيحيين ، ومثلهما من اليهود ، إلى جانب عشرة من الموظفين الإنجليز ؛ غير أن العرب رفضوا ذلك العرض محتجين بأن العضوين اليهوديين سيقترعان دائماً إلى جانب الموظفين الإنجليز كلما عرضت مسائل تتعلق بالوطن القومى اليهودى ، وبذلك يفرضون على العرب سياستهم .

وبذلت عدة محاولات فى هذا الصدد من جانب العرب ، وكادت مساعيهم تثمر عند ما أثيرت هذه المشكلة فى مجلس اللوردات والعموم ، وعلى الرغم من دفاع لورد بلفور عن قضية اليهود ، قرر مجلس اللوردات إرجاء قبول الانتداب بأغلبية ٦٠ صوتاً ضد ٢٩ ، على أن هذا القرار لم يترتب عليه أية آثار عملية .

وصدر بعد ذلك الكتاب الأبيض الذى اعترف فيه تشرشل بحق اليهود فى إقامة وطن قومى لهم فى فلسطين بضمان دولى ، دون أن يكون فى ذلك مساس بحقوق السكان الأصليين ، أى أنه لم يعترف لليهود بحق تأليف حكومة صهيونية فى فلسطين ، وقضى على آمالهم فى أن تصبح فلسطين لليهود كما أن إنجلترا للإنجليز ، مشيراً إلى أن هذه الفكرة غير قابلة للتحقيق من الناحية العملية ، كما بدد مخاوف العرب بشأن إخضاع السكان

أو الثقافة أو اللغة العربية فى فلسطين للفكرة الصهيونية ؛ ثم أوضح أن المجلس التنفيذى الصهيونى لم يعرب عن رغبته فى الاشتراك فى إدارة الأراضى الفلسطينية ، ولا يشترك فيها فعلا ، ولفت النظر أخيراً إلى أن وعد بلفور لم يستهدف أن تتحول فلسطين إلى وطن قومى يهودى ، وإنما يرمى إلى إنشاء وطن لهم فى هذه الأراضى .

وأخيراً أصبح صك الانتداب البريطانى سارياً فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٩ ، ويتضمن هذا الصك ٢٩ مادة ، من بينها سبع مواد تنصب على مسألة الوطن القومى اليهودى ، أهمها المادة التى نص فيها على أن الوطن القومى سيتحول فيما بعد إلى دومنيون مستقل ، دون أن يرد فى المادة عبارة « دومنيون مستقل يهودى »

وقد أبرزت هذه العبارة فيما بعد تأييداً لمطالبة العرب باستقلال فلسطين ، وأيدت بريطانيا هذا الرأى فى الكتاب الأبيض الصادر فى سنة ١٩٣٩ .

ومن أهم ما حدث إبان إدارة هربرت صامويل ، أن افتتح لورد بلفور الجامعة العبرية فى أول أبريل سنة ١٩٢٥ ، وقد شهد حفل الافتتاح نحو سبعة آلاف شخص من بينهم عدد كبير من العلماء وأساتذة الجامعات .

وقضى سير هربرت صامويل خمس سنوات فى منصب المندوب السامى ، وقد وضع قبيل إحالته إلى المعاش تقريراً عن إدارته ، أشار فيه إلى التقدم الذى أحرزته البلاد فى عهده ، وذكر أن الوئام قد حل تدريجياً مكان الخصام ، وأن الأمن قد استتب ، واكتسب القضاء الإنجليزى ثقة السكان من مختلف الأديان ، وصار فى الميزانية العامة فائض يسمح بشراء السكة الحديدية الموصلة بين يافا والقدس ودفع القسط السنوى من الدين العثمانى السابق للحرب ؛ ثم نوه بتحسن طرق المواصلات ونمو التجارة ، وانتقل بعد ذلك إلى التعليم فأشار إلى أن مدارس العرب بلغ عددها ٢٠٠ مدرسة ، وذكر أن الخير بدأ يفيض على البلاد بعد أن تألفت شركة برأس مال قدره مليون جنيه للإفادة من مياه نهر الأردن ورافده اليرموك فى توليد القوى الكهربائية .

وعرج هربرت صامويل على الوطن اليهودى فذكر فى تقريره أن تقدماً ملحوظاً قد سجل أثناء إدارته لشئون فلسطين ، فقد ارتفع عدد السكان اليهود من ٥٥ ألفاً عام ١٩١٨ إلى ١٠٣ آلاف خلال ١٩٢٥ ، وأشار إلى أن الأراضى التى يملكها اليهود قد تضاعفت ، وازداد عدد سكان المدن بوجه عام ، فبلغ عدد اليهود فى تل أبيب ٣٠ ألفاً بعد أن كانوا ألفين ، كما

تضاعف اليهود فى يافا أربع مرات إبان عهده .

وقد عين لورد بلومر مندوباً سامياً لفلسطين بعد هربرت صامويل ، فأصيب اليهود بخيبة أمل شديدة ، لأنهم ظنوا أن بريطانيا ستعين واحداً من أبناء دينهم ؛ وعلى العكس من ذلك ابتهج العرب لذلك التعيين ، لاعتقادهم بأن ذلك بشير بتغيير السياسة الإنجليزية فى مصلحتهم ، إلا أن هذه النظرة لم تلبث أن تغيرت لدى الفريقين ، إذ لمس العرب أن السياسة البريطانية ما زالت فى طريقها المرسوم ، كما اتضح لليهود حرص المندوب السامى على أداء واجبه ، ولمسوا فيه روح العدالة والتزامه الطريق المستقيم الذى يمليه عليه منصبه ، طوال السنوات الثلاث التى قضاها فى فلسطين .

فقد دعم اقتصاديات البلد ، وأصدر طائفة من التشريعات ، كما أدخل على جهاز الإدارة تعديلات عدة .

وأهم هذه التشريعات قانون الرعوية الفلسطينية الذى نص على أن يكتسبها كل شخص يقيم فى الأراضى الفلسطينية مدة سنتين بغير انقطاع ، على أن يكون ملماً بإحدى اللغات الرسمية الثلاث (العربية والعبرية والإنجليزية) وأن يثبت توفر النية لديه فى الإقامة الدائمة .

وأعاد لورد بلومر تأليف قوات الأمن الداخلى ، إلى جانب

قوة عسكرية نظامية تتولى حراسة الحدود الشرقية الفاصلة بين الأردن وفلسطين ، وتعتبر مستقلة تمام الاستقلال عن قوة الأمن الداخلي ؛ وقد ثبت فيما بعد أن تخفيض قوات الشرطة كان غلطة شنيعة لا تغتفر ، إذ ترتب على ذلك وقوع اضطرابات خطيرة عام ١٩٢٩ .

كما صدر قانون آخر لحماية مستأجرى الأرض الذين كان المالك يطردهم منها بدون سابق إنذار ، فحدد لهم القانون سنة يخرجون بعدها ، ويتقاضون تعويضاً إذا ثبت أنهم استصلحوا الأرض أو أقاموا فيها مشروعات أدت إلى زيادة إنتاجها .

وقد عنى لورد بلومر برفاهية البلاد الاقتصادية ، فأصدر تشريعات عمالية خاصة بتعويض العامل عن إصابات العمل ، وحماية المرأة والطفولة فى المصانع ، ومنح علاوة للعامل فى الصناعات الخطرة ، ومكافحة البطالة .

وناهيك بما قدمه من عون للسكان العرب واليهود على السواء عند ما رزئت البلاد بالهزات الأرضية العنيفة عام ١٩٢٧ .

وأخيراً وليس آخراً ، إحلال العملة الفلسطينية مكان العملة المصرية التى كانت متداولة عام ١٩٢٧ .

إقامة الوطن القومى اليهودى

تضمن صك الانتداب الإنجليزى على فلسطين مادة تنص على أن توفر الدولة صاحبة الانتداب الظروف لإقامة وطن قومى يهودى ، إلا أن المنظمة الصهيونية سبق أن وضعت لبنات هذا الوطن ، بفضل الهبات التى كانت تنهال عليها من مختلف أنحاء العالم ، وتحت إشراف الهيئة التنفيذية الصهيونية بفلسطين التى اندمجت عام ١٩٢٩ فى المجلس التنفيذى للوكالة اليهودية .

والعاملان الرئيسيان لإقامة الوطن القومى هما الهجرة والأرض ، وقد نصت المادة السادسة من صك الانتداب على أن مهمة الإدارة أن تعمل على تيسير هجرة اليهود إلى فلسطين فى ظروف مناسبة ، ثم تشجيع توطينهم على نطاق واسع فى الأراضى الفلسطينية بما فيها أملاك الدولة والأراضى البور التى لم تستغلها المرافق العامة .

وبمقتضى هذه المادة بلغت مساحة الأراضى المنزرعة من أملاك الدولة التى اقتطعتها حكومة الانتداب ليهود فلسطين طوال السنين الثلاث والعشرين ٤٠٠ و ١٧ دونم ، أو ما يعادل نحو ٤ آلاف فدان ، بينما نال العرب فى نفس المدة ٣٥٠ ألف

دونم ؛ لذا كان لزاماً على البنك الوطنى اليهودى أن يشترى كل ما يحتاجه اليهود المهاجرون من أراض .

وأما فيما يتعلق بالهجرة فقد أصدرت حكومة الانتداب قراراً فى أواخر ١٩٢٠ يبيح للوكالة اليهودية إدخال ١٥٦٠٠٠ مهاجر يهودى فى السنة ، على شرط أن تتحمل نفقات معيشتهم خلال سنة كاملة من تاريخ دخولهم ، فبلغ عدد المهاجرين خلال السنة الأولى عشرة آلاف ، ولكن المنظمة الصهيونية رأت أن هذا العدد قليل ، فحملت المندوب السامى (اليهودى) على أن يصدر قراراً آخر بدخول فئات معينة من المهاجرين ، لا سيما أولئك الذين لديهم موارد خاصة ويريدون إقامة دائمة فى فلسطين . وكذلك أصحاب المهن والحرف الذين يبدون الرغبة فى مزاولتها بفلسطين ، ومن يحصلون على عقود للعمل عند أصحاب رءوس الأموال والمصانع ، هذا إلى التجار الذين يملكون رأس مال لا يقل عن ٥٠٠ جنيه .

وتوالت بعد ذلك قرارات أصدرتها حكومة الانتداب بشأن الهجرة ، وكان آخرها ذلك القرار الذى صدر عام ١٩٢٦ وتضمن منح تسهيلات لبعض فئات من المهاجرين ، من بينهم :

١ ــ الأشخاص ذو الموارد الخاصة (على ألا تقل قيمتها عن ألف جنيه) وأسرهم ، وذو المهن والكفاءات الخاصة ممن



يملكون ٥٠٠ جنيه .

٢ ـــ اليتامى الذين ترعاهم الملاجئ الفلسطينية ، والمشتغلون بشئون دينية ، على أن يكون لهم موارد تقيم أودهم ، والطلبة الذين لا يعيشون عالة على الآخرين .

٣ ـــ الأشخاص الذين يتقنون عملا ويجدون من يستخدمهم .

٤ ـــ أسر الأشخاص المقيمين فى فلسطين الذين يتعهدون بكفالتهم . ويمكن القول إن بنود هذا القرار ظلت سارية إلى أن قامت دولة إسرائيل ، ما عدا البند الثالث منها ، فقد كان فى أغلب الأحايين موضوع خلاف شديد فى التفسير بين حكومة الانتداب والمنظمة الصهيونية ، فكانت هذه الأخيرة تقدم كشوفاً تفصيلية عن العمال الإخصائيين وميادين نشاطهم ، فتختزل الحكومة عدهم إلى أقصى حد ، مما كان يثير المنظمة ويترتب عليه نقص فى الأيدى العاملة أدى إلى عرقلة النهضة الاقتصادية فى البلاد ، واتجاه الكثير من العمال الزراعيين إلى المدن بدلا من البقاء فى المستعمرات الزراعية .

وكان اليهود يفدون إلى فلسطين من البلاد التى كانوا يسامون فيها الاضطهاد الدينى والسياسى ، والتى كانت الأزمة الاقتصادية مستحكمة فيها . كدول شرق أوربا ووسطها واليمن ، فضلا عن الأقطار البعيدة المتباينة ، كسيبيريا وأفريقيا الجنوبية

وكندا والأرجنتين ومراكش وإيران وغيرها .

وفى الجملة كان اليهود المهاجرون إلى فلسطين تشكيلة من سائر جنسيات العالم ، إلا أن هؤلاء الذين وفدوا إليها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى بين ١٩٢٠ و١٩٢٢ ، كانوا من الشباب الطموح ، فقد أعدت ، فى بولندا وغيرها من البلاد التى تعيش فيها جاليات يهودية كبيرة ، مراكز لتدريب الفتية والفتيات على أعمال الزراعة وبعض الحرف اليدوية ، وتلقينهم أصول العبرية باعتبارها لغة حية ، حتى إذا ما وصلوا إلى الأراضى الفلسطينية استقبلهم موظفون من إدارة الهجرة الصهيونية ، وأعدوا لهم الغذاء والمسكن إلى أن يتيسر توزيعهم على المستعمرات الزراعية ، أو توجيههم إلى المهن التى تخصصوا فيها ، وكانت إدارة الهجرة تقوم بسداد المستحق للحكومة على كل مهاجر (جنيه رسم دخول ، وعشرة شلنات رسوم الحجر الصحى) كما تقدم قرضاً لكل مهاجر لشراء الأدوات اللازمة لبدء حياته .

وقد ازداد عدد المهاجرين خلال السنين الخمس الأولى من الإدارة المدنية لحكومة الانتداب ، فارتفع عددهم من ٨٢٢٣ إلى ٣٤٣٨٦ عام ١٩٢٥ . ثم توالت السنون ، وكان بعضها يشهد نشاطاً فى الهجرة وبعضها الآخر يشهد كساداً ، وكانت أسوأ السنين التى مرت على اليهود سنة ٢٨ التى بلغ عدد المهاجرين فيها

من فلسطين ضعف عدد الوافدين عليها ، ولعل مرجع هذا إلى نقص الأيدى العاملة الناشيء عن الأزمة الاقتصادية فى بولندا التى كانت تعتبر أكبر مورد للمهاجرين اليهود إلى فلسطين ؛ إذ تناقصت مواردهم المالية أو كادت تنعدم ، فلم يكن لديهم النصاب الكافى لدخول أرض الميعاد .

وقد ترتب على ذلك زيادة فى عدد المهاجرين الفقراء ونقص فى عدد ذوى اليسار ، مما أدى إلى التعطل ، وبالتالى إلى وقف المشروعات الإنشائية ، بما فيها الصناعات والمبانى فى المدن .

وهناك ثلاثة أنواع من التوطن :

١ ــ التوطن فى المستعمرات الزراعية .

٢ ــ التوطن فى المستعمرات الجماعية .

٣ ــ توطن أصحاب الملكيات الزراعية الصغيرة .

والخاصة المميزة للمستعمرات الزراعية التى توجد بصفة عامة فى السهول القريبة من شاطيء البحر وفى منطقة الخليل ــ وهى التى كان يرعاها وينفق عليها البارون دى روتشيلد ــ هى أن أراضى المستعمرة ملك خاص للعاملين فيها . ولما كان هناك تفاوت فى الكفاءة والمقدرة بين سائر المستعمرين ، فقد ازداد ثراء فريق منهم وأصبحوا من كبار الملاك ؛ وبما أن أسرة

المالك الكبير محدودة العدد ولا يكفى أفرادها لزراعة العين ، فقد كان يعيش إلى جانب هؤلاء نفر لا يجدون ما يسد الرمق إلا بالكد ، ومع ذلك يطالبون بأجور مرتفعة ، فلجأ كبار الملاك إلى الأيدى العاملة التى ترضى بالقليل .

وقد نشأ عن هذا النظام القائم على أساس السعى وراء المنفعة فوارق اجتماعية ضخمة بين الجماعات التى تعيش فى القرية الواحدة ، الأمر الذى يتنافى مع المثل العليا التى كان يرنو إليها أصحاب المشروع .

وقد عالجت المنظمة الصهيونية والبنك اليهودى تلك الحالة عن طريق إقطاع الأرض لمن يتولى زراعتها ومده بالمال اللازم لخطواته الأولى .

ولم يقتصر نشاط المنظمة الصهيونية على شراء الأرض ، بل امتد إلى إجراء الإصلاحات فيها ، والقيام بمشروعات الرى والصرف وتحويل المجارى المائية ، وتمهيد الأراضى ، وبناء الطرق ، وزراعة الغابات ، مع إطلاق أسماء المحسنين وذوى الأيادى على الحركة الصهيونية (غابة هرزل ، وغابة بلفور) .

كما كانت المنظمة تشترى أراضى فى المدن لبناء أحياء سكنية لليهود ؛ وقد ساهمت علاوة على ذلك بقسط وفير فى مشروع استنباط القوى الكهربائية ، واستخراج الأملاح المعدنية

من البحر الميت ، مما كان له أكبر الأثر فى تنمية موارد البلاد ؛ وعمدت المنظمة أيضاً إلى إحياء الصناعات فى المدن ، فازداد عدد سكانها زيادة كبيرة ؛ ونضرب لذلك مثلا مدينة تل أبيب التى ارتفع عدد سكانها من ألفى نسمة عام ١٩١٤ إلى أربعين ألفاً خلال ١٩٢٩ وبلغت جملة رءوس الأموال الموظفة فى المدن لإقامة المبانى فى هذه السنة ١,٧٤٢,٠٠٠ جنيه استرلينى .

ويتضح من الإحصائيات التى وضعتها الهيئة التنفيذية الصهيونية عام ١٩٢٦ . أن عدد المنشئات الصناعية فى فلسطين بلغ فى هذه السنة ٥٥٨ مصنعاً ومؤسسة كانت تستخدم ٥٧٠٠ عامل .

ولقد طفرت صادرات فلسطين ووارداتها بفضل انتعاش الصناعة والزراعة فيها ، وما كان يقدمه البنك الإنجليزى الفلسطينى من قروض ومساعدات .

هذا وكانت معاهد التعليم فى فلسطين ثلاث فئات : المدارس التى كانت تلقن فيها العلوم بالعبرية ، وكانت المنظمة الصهيونية تتولى رعايتها والإنفاق عليها ، ولا تقل نسبتها عن ٨٠٪ ثم مدارس الجمعية الإنجليزية ، ومدارس العرب وكانت حكومة الانتداب تتولى الإنفاق عليها .

وكان حجر الزاوية فى النظام التربوى اليهودى هو الجامعة

العبرية ، وتشمل معهداً للدراسات اليهودية والشرقية ، وآخر للفلسفة ، ثم كليتين لدراسة الآداب والتاريخ ، وثالثة للعلوم ، تدرس فيها الطفيليات والتاريخ الطبيعى والكيمياء والرياضيات بأنواعها ، هذا إلى جانب مكتبة تحوى ر بع مليون مجلد .

ولقد رأت الهيئة التنفيذية اليهودية أن تسهر على رفاهية المهاجرين ، فأنشأت لهذا الغرض إدارة صحية تتعاون مع مصلحة الصحة الحكومية ، وكانت هناك منظمتان قائمتان من قبل للإشراف على المسائل الصحية والعلاجية لليهود ، هما : « هيئة هاداساه وهيئة كوبات هوليم » وتتلقى كل منهما إعانة صغيرة من حكومة الانتداب .

وقد تأسست هيئة « هاداساه » على أيدى نساء أمريكا الصهيونيات ، واستهلت نشاطها فى فلسطين غداة دخول جيش اللنبي الأراضى الفلسطينية ، فأنشأت خلال عام ١٩١٨ أربعة مستشفيات فى القدس وتل أبيب وحيفا وصفد ، علاوة على عدد من العيادات الخارجية ، ومدرسة لتخريج الممرضات بالقدس ، هذا فضلا عن دور الولادة والحضانة التى أقامتها فى مختلف المدن والقرى .

وبلغ ما أنفقته الهيئة المذكورة نيفاً ومائة ألف جنيه استرليني عام ١٩٣٠ وهو مبلغ يفوق ميزانية مصلحة الصحة الحكومية .

والآن وقد استعرضنا مختلف أوجه النشاط الصهيونى فى فلسطين ، بما فى ذلك الهجرة والعمل والزراعة والصناعة والحرف اليدوية والتجارة والتعليم ، التى ساعدت على إقامة الوطن القومى خلال السنين العشر التى تولت فيها الإدارة الإنجليزية شئون البلاد ، نعود فنكرر أن نواحى النشاط المذكورة كانت توجهها وترعاها وتقوم بنفقاتها الهيئة التنفيذية الصهيونية والبنك الوطنى اليهودى .

كيف توسعت الوكالة اليهودية

أحست الدوائر الصهيونية المسئولة ، بعد إعلان تصريح بلفور أن إقامة الوطن القومى فى فلسطين سيكون عملا ضخماً لا تكفى لتنفيذه جهود المنظمة الصهيونية وحدها ، وأنما يتطلب إلى جانب هذا جهود يهود العالم الذين كانوا بمنأى عن المنظمة .

وقد اتخذ فى المؤتمر الصهيونى الذى عقد عام ١٩٢٠ بلندن قرار يوصى بالدعوة إلى مؤتمر يهودى عالمى ، ينعقد على أساس ديموقراطى ، ويصبح الهيئة ذات الحق فى الكلام والعمل باسم يهود العالم فى كل ما يتعلق بشئونهم الوطنية ، على أن اسم فلسطين لم يذكر فى هذا القرار على أنها محط آمال اليهود فى أن تصبح أراضيها وطناً قومياً لهم ، غير أنه ورد صراحة فى المؤتمر الصهيونى التالى ، الذى طالب بتوحيد الجهود المتفرقة فى سبيل إعادة الشعب اليهودى إلى أرض أسلافه بفلسطين .

وقد أشار صك الانتداب الإنجليزى إلى الوكالة اليهودية فى ثلاث مواد ، نذكر منها :

المادة ٤ — تعترف الدولة صاحبة الانتداب رسمياً بهيئة مناسبة يكون لها الحق فى إبداء الرأى وبذل المعونة للإدارة

المدنية فى جميع المسائل الاجتماعية والاقتصادية وغيرها مما يمس إقامة الوطن القومى اليهودى فى فلسطين أو مصالح اليهود فيها ، وذلك تحت إشراف الإدارة المدنية .

وتنص المادة بعد ذلك على أن الهيئة التى يتعين الاعتراف بها هى المنظمة الصهيونية .

المادة ٦ — مع عدم المساس بحقوق ومراكز الطوائف الأخرى تعمل حكومة الانتداب على تيسير الهجرة وتشجيعها بالاتفاق مع الوكالة اليهودية ، مع توطينهم فى أملاك الحكومة والأراضى البور غير المستغلة فى المرافق العامة .

المادة ١١ — يجوز لحكومة الانتداب ، كلما رأت تعذر قيامها بالعمل وحدها ، أن تتفاهم مع الوكالة اليهودية بشأن تنفيذ المشروعات الإنسانية والاستغلالية والمرافق العامة لإنماء الموارد الطبيعية فى البلاد ، على أن يراعى العدل والأمانة فى ذلك .

غير أن توسيع نطاق الوكالة اليهودية وإدخال العناصر غير الصهيونية فيها ، لاقى معارضة شديدة من بعض الأقطاب ، خشية أن يودى فتور هذه العناصر بالمبادئ التى كان يدين بها الصهيونيون أنفسهم ، وعلى رأسها إقامة الوطن القومى فى أرض إسرائيل ، فلم يتم الاتفاق قبل عام ١٩٢٩ أثناء انعقاد المؤتمر الصهيونى السادس عشر بمدينة زيوريخ ، إذ تقرر فى ذلك المؤتمر

توسيع الوكالة بأغلبية ٢٣١ صوتاً ضد ٣٠ ، واعتمدت ميزانية خاصة بفلسطين ، ورصد للوطن القومى مبلغ ٤٢٠٨٢٥ جنيهاً منها ٢٠٣,٥٠٠ جنيه لاستعمار الأراضى ، كما انتخب ١٣ عضواً للهيئة التنفيذية المشتركة ، من بينهم وايزمان الذى اختير رئيساً .

وأصبحت الوكالة اليهودية ، بعد أن اتسع نطاقها ، تضم ثلاث هيئات رئيسية .

١ — مجلس يتألف من مائتى عضو .

٢ — لجنة الإدارة وتضم ٤٠ عضواً .

٣ — مجلس تنفيذى محدود .

وكل من هذه الهيئات الثلاث تضم عدداً مماثلا من الصهيونيين وغير الصهيونيين ، وكان مقر المجلس التنفيذى فى مدينة القدس ، ويتبعه مكتب فى لندن ، ليكون حلقة اتصال بين الحكومة صاحبة الانتداب والمجلس التنفيذى للوكالة اليهودية .

اعتداءات وتحقيقات ولجان

عقد اليهود آمالهم على أن ينسى العرب تصريح بلفور المشئوم على مر السنين، بعد أن يلمسوا الفوائد والمزايا التى عادت عليهم من جراء توطين اليهود فى فلسطين[1] . . .

وعلى الرغم من اعتداء العرب على أرواح اليهود عام ١٩٢١، فقد ظل هؤلاء يرددون فى مؤتمراتهم الصهيونية أنهم يريدون العيش فى وئام مع العرب .

وعلى الرغم من ألوف العرب الذين كانوا يعملون فى المستعمرات اليهودية، والمئات الذين كانوا يعملون فى المصانع التى أقامها اليهود .

وعلى الرغم من الثراء الفاحش الذى أصابه العرب من بيع أراضيهم لليهود وما كان يجنيه ملاك البيوت من إيجارها .

وعلى الرغم من قبول المرضى العرب فى المستشفيات اليهودية

---

(١) يريد المؤلف فى هذا الفصل وفيما يليه من فصول الكتاب، أن يوهم الرأى الدولى العام أن الصهيونية فى فلسطين عادت على العرب بكثير من الخير ؛ وهو وهم تنقضه صرخات مئات الآلاف من العرب المشردين الآن فى البرارى القاحلة بعد أن صار لإسرائيل دولة فى فلسطين !

والطلاب العرب فى المدارس المهنية والجامعة العبرية .

على الرغم من ذلك كله ، ظل ساسة العرب على عدائهم لليهود وسخطهم على تصريح بلفور .

لقد ظلت النار مستعرة فى القلوب سبع سنوات .

وظلت النفوس الثائرة مكبوتة تنتظر ساعة الخلاص .

ثم دقت هذه الساعة بعد رحيل لورد بلومر إبان صيف ١٩٢٨ إذ حدث حادث ذو بال ظن اليهود فى بادئ الأمر أنه قاصر على المساس بشعورهم الدينى ، غير أنهم ما لبثوا أن تبينوا وقوع الكارثة .

لقد كان اعتراض العرب منصباً على جدار المبكى ، وهو البقية الباقية من آثار معبدهم الذى تهدم منذ قرون عدة .

ويقع هذا الجدار خارج الحرم الشريف الذى يضم الصخرة والمسجد الأقصى ، ويعتبر ثالث الأماكن المقدسة فى نظر المسلمين بعد بيت الله الحرام وقبر الرسول .

فى عشية يوم الصوم الكبير عند اليهود ، جلب رجال الدين إلى حائط المبكى الأدوات اللازمة لإقامة الشعائر الدينية المرعية فى هذا العيد ، ومن بين ما جلبوا ، ستار متحرك لحجز الرجال عن النساء على حسب السنة اليهودية ، وأقاموه منذ تسعة أيام ، أى فى رأس السنة العبرية ، دون أن تثير السلطات أى اعتراض

على ذلك .

ولكن مأمور القدس تلقى من ناظر أوقاف الحرم الشريف شكوى بأن الستار الحائل ، على الصورة وفى المكان الذى أقيم فيه، ينطوى على افتيات على حقوق الملكية الإسلامية .

فأصدر المأمور إلى أحد رجاله أمراً بنقل الستار الحائل ، وقصد هذا الأخير إلى مكان الحفل لتنفيذ أمر رئيسه ، ولكن اليهود رفضوا الامتثال ، فأزاله بالقوة أثناء إقامة الشعائر الدينية ، وكان هذا العمل مثار الاستنكار بين جماعة المصلين اليهود الذين استولت عليهم الدهشة ، واصيبوا بالذهول لهذا التصرف من جانب موظف بريطانى .

وأثار هذا العمل ثائرة الأوساط اليهودية فى مختلف أنحاء العالم، ورفعت الصهيونية إلى عصبة الأمم عريضة طالبت فيها بمنح اليهود حرية إقامة شعائرهم الدينية أمام المبكى .

فرد العرب على ذلك بنداء موجه إلى العالم الإسلامى أثاروا فيه طائفة من المزاعم حول مقاصد اليهود فى الأماكن المقدسة الإسلامية .

ولكى يبرز العرب حقوقهم ، أقاموا بناء فى الجهة الشمالية من حائط المبكى ، بحجة مواراة الحريم فى بيت المفتى الأكبر عن عيون الفضوليين ، وكلفوا أحد الشيوخ بأن يؤذن خمس مرات

فى اليوم ، وفى ذلك ما فيه من تضييق على المصلين اليهود .

وما لبث المسئولون اليهود أن جأروا بالشكوى لدى السلطات الحكومية ؛ فصدر فى نوفمبر عام ١٩٢٨ كتاب إنجليزى أبيض تضمن تقرير الوضع الراهن فيما يختص بإقامة الشعائر اليهودية أمام حائط المبكى ، على ألا تزيد الأدوات التى يحضرها هؤلاء فى أعيادهم على ما كان مرخصاً باستعماله أثناء الحكم العثمانى ، غير أن الكتاب الأبيض المذكور أغفل تعيين هذه الأشياء .

وكان وصول المندوب السامى الجديد « سير جون تشانسلور » يبدو بشيراً بعهد من السلام والسكينة ، نظراً لاهتمامه البالغ بتقدم البلاد من الناحية الاقتصادية ؛ لذا شهدت الشهور الأولى من عام ١٩٢٩ قيام حركة من التعمير والإنشاء شملت بناء ميناء لحيفا ، كما تم تنفيذ مشروع استغلال الأملاح المعدنية فى البحر الميت .

وفى صيف هذه السنة أثيرت مسألة حائط المبكى من جديد بعد أن أجرى المسلمون تعديلات فى بناء دار المفتى رؤى أنها تعطل إقامة الصلوات والشعائر اليهودية . ولما كلفت السلطات الإنجليزية خبراءها ببحث هذا الموضوع ، ذكروا فى تقريرهم أن لا مانع من إجراء هذه التعديلات ، ونبهت سلطات الانتداب على المسئولين العرب بألا يتعرضوا لليهود فى صلواتهم .

ثم حدث فى أثناء رحلة المندوب السامى إلى جنيف لرفع التقرير الخاص بإدارة فلسطين إلى لجنة الانتدابات بعصبة الأمم ، أن تألفت لجنة عربية للدفاع عن الأماكن الإسلامية المقدسة من عدوان اليهود ، برئاسة المفتى الأكبر ، وذلك لإثارة العرب ضد اليهود ، ولما أرد اليهود تأليف لجنة للدفاع عن حائط المبكى ، أبت المنظمة الصهيونية أن تقرهم فيما يعتزمون .

وفى اليوم التالى لصيام اليهود ، وقف لفيف من شبابهم إلى جانب المبكى وراحوا يولولون ، ويتذاكرون هدم المعبد الأكبر ، ثم رفعوا العلم الصهيونى ، ولم يتعرض لهم العرب ، نظراً لوجود قوات كبيرة من البوليس كانت فى حراستهم .

إلا أنهم فى اليوم التالى اعتدوا على حارس المبكى ومزقوا ملابسه وأحرقوا عدداً من الكتب الدينية والعرائض التى يحشرها اليهود فى شقوق الحائط ، وتتضمن ابتهالات إلى الله بأن يعيد بناء معبد إسرائيل .

وبعد عدة أيام كانت النفوس قد امتلأت بالحقد والضغينة من الجانبين ، حين خرج جماعة من القرويين الأعراب من دار المفتى ، وكانوا مسلحين بالهراوات والمدى والسيوف والأسلحة النارية ، فهاجموا اليهود فى مختلف أحياء القدس ، ثم طغت موجة العدوان على بعض المستعمرات اليهودية المجاورة ، وامتدت بعد

ذلك إلى حيفا .

وأعمل العرب السلب والنهب فى عدد من المزارع الجماعية ، وكان أعنف هجوم ذلك الذى شنه العرب على يهود بلدة (حبرون) فقتلوا من سكانها ستين رجلا وامرأة ، وأصابوا نحو خمسين بجراح بليغة .

ولم تستطع الحكومة وقف هذا التيار الجارف من العدوان بما كان لديها من قوات محدودة العدد ، فاستنجدت بقوات من الجيش الإنجليزى المرابط فى مصر وفى مالطة .

وطلب اليهود وقتذاك تسليح بعض اليهود للدفاع عن إخوانهم ، فرفضت الحكومة بحجة أن هذا الإجراء قد يزيد من هياج العرب . وتأخر وصول النجدات بعض الوقت ، فقامت مذبحة أخرى بعد عدة أيام ، وأسفرت المعركة عن ١٣٣ قتيلا يهودياً و ٣٣٩ جريحاً ، وقتل من العرب ١١٦ رجلا ، كما جرح ٣٣٢ وكانت معظم إصاباتهم بفعل نيران أسلحة البوليس .

وقد عاد المندوب السامى على عجل ، وأصدر بياناً استنكر فيه عدوان العرب على اليهود ووحشيتهم ، ولما احتج الزعماء العرب على ما جاء فى البيان ، أعلن المندوب السامى أنه سيأمر بإجراء تحقيق لمعرفة من من الفريقين بادر الآخر بالعدوان .

وأعقب ذلك تعزيز قوات الأمن وتوزيعها على المستعمرات

وتسليح رجال المزارع الجماعية ، وإعانة المنكوبين من الفريقين .

وقد قدم للمحاكمة ٦٠٠ شخص بتهم تتعلق بالاضطرابات التي حدثت ، فثبتت تهمة القتل على ٥٥ أعرابياً واثنين من يهود تل أبيب ، وقضت المحكمة بأحكام مختلفة على ١٥٠ شخصاً بتهمة السلب ، و ٢١٩ بتهم متباينة ؛ ثم صدر عفو تام عن الجميع ، إلا ثلاثة من بينهم نفذ فيهم حكم الإعدام .

وكان لهذه الأزمة آثار سياسية بعيدة المدى ، فحدثت تحقيقات رسمية ترتبت عليها مناقشات وجدل شديد امتد أجله عدة سنوات ، ولم يكن خطراً على الاستقرار فحسب ، بل على مستقبل الوطن القومي اليهودي أيضاً .

وقد أوفدت وزارة المستعمرات البريطانية لجنة للتحقيق فى أسباب الاضطرابات التي حدثت فى فلسطين ؛ فجاء فى تقريرها أن السبب الأساسى راجع إلى ما يكنه العرب من كراهية لليهود ، نتيجة لخيبة آمالهم من عدم تحقيق أمانيهم السياسية والخوف على مستقبلهم الاقتصادى .

وأحدث تقرير اللجنة قلقاً شديداً فى الأوساط الصهيونية ، وقد أعرب « وايزمان » عن المخاوف التي تساور اليهود فى كتاب بعث به إلى جريدة التيمس بتاريخ ٣ أبريل ١٩٣٠ وناشد فيه رجال السياسة بأن يقولوا كلمتهم .

وجاء الرد بعد ظهر ذلك اليوم على لسان رئيس الحكومة فى مجلس العموم إذ قال :

« إن حكومة صاحبة الجلالة ستمضى فى إدارة الأراضى الفلسطينية على حسب أحكام صك الانتداب المخول إليها من عصبة الأمم ، وهذا التفويض يعتبر التزاماً دولياً لا يمكن الرجوع فيه ؛ وفى نية الحكومة البريطانية أن تقوم بتنفيذ حرفية تصريح بلفور وتوزع العدل والقسطاس بين سائر عناصر سكان فلسطين ، وهذا واجب عليها لن تحيد عنه . بل ستؤديه بكل ما أوتيت من قوة و بكل ما لديها من وسائل . »

و بدأت المرحلة التالية فى كفاح اليهود من أجل الوطن القومى حينما قام «سمسون هوب » أحدالموظفين الإنجليز فى الهند بتحقيق تناول فيه مسائل الهجرة اليهودية والاستعمار واستصلاح الأراضى ، وقدم عنها تقريراً إلى الحكومة البريطانية أذيع فى ٢١ أكتوبر عام ١٩٣٠ ، فى الوقت الذى أصدرت فيه الحكومة كتاباً أبيض بعنوان (سياسة بريطانيا فى المملكة المتحدة) ، وقدعمد اليهود إلى تجريح هذا التقرير وتناولوه بمر النقد، لما احتواه من بيانات خاطئة، بنفس القدر الذى استغلوا به الكتاب الأبيض الإنجليزى الذى قالوا عنه إنه ينطوى فى جملته على إنكار للمبادئ التى أعلنت من قبل فى تصريح بلفور ، وتهرب من الواجبات التى التزمت بها

الدولة صاحبة الانتداب .

وقد أقرتهم فيما ذهبوا إليه لجنة الانتدابات التابعة لعصبة الأمم ، فأعلنت أن سياسة الحكومة التى أعلنتها فى الكتاب الأبيض تعد انتهاكاً لما جاء فى صك الانتداب الإنجليزى على فلسطين ، كما حمل على الكتاب الأبيض لويد جورج والجنرال سمطس وعدد من الزعماء الإنجليز من بينهم سير جون سيمون ولورد هيلشام ؛ وكان من أثر هذه الحملة أن عرضت المسألة على مجلس العموم للمناقشة وانتهت بتأييد وجهة النظر الصهيونية .

وعلى أثر ذلك تألفت لجنة ضمت عدداً من الوزراء الإنجليز ، انضم إليهم الدكتور وايزمان ؛ وأسفرت مداولات هذه اللجنة عن كتاب بعثت به حكومة لندن إلى وايزمان وأعربت فيه عن اقتناعها بضرورة إصلاح بعض ما ورد فى الكتاب الأبيض دون إنكاره فى جملته .

وقد جاء فى أحد التقارير التى وضعها الإخصائيون الإنجليز عن الحالة الاقتصادية فى فلسطين ، أن الفلاحين العرب أصبحوا معدمين ولم يعد لديهم ما يقيم أودهم ، فأوفدت الحكومة الإنجليزية لجنة للتحقيق ، وقد أسفرت تحرياتها عن أن عدد العرب الذين فقدوا أراضيهم خلال اثنتى عشرة سنة ٦٦٤ عربياً ، من بينهم كثيرون فقدوا أملاكهم بسبب الربا الفاحش الذى كان

يتقاضاه الدائنون .

وعلى ذلك أصدر البرلمان الإنجليزى قانوناً يرخص للخزانة بأن تضمن القرض الذى تصدره حكومة فلسطين فى حدود مليونين من الجنيهات لإعادة توطين المعدمين العرب فى الأراضى الصالحة للزراعة .

ثورة العرب

كان من رأى المندوبين السامين الإنجليز ابتداء من عام ١٩٣٠ المبادرة إلى تأليف مجلس تشريعي لفلسطين ؛ وبينما كان العرب يحبذون الفكرة كانت الوكالة اليهودية تعارضها معارضة شديدة ، بحجة أن عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين ما زال وقتذاك محدوداً ، وأن تأليف المجلس التشريعي فى هذه الظروف سيسفر بطبيعة الحال عن أغلبية عربية لا تلبث أن تسيطر على مصير البلد وتوقف تيار الهجرة اليهودية وتذكى نار العداء بين العنصرين العربى والمسيحى من جانب ، والعنصر اليهودى الذى يعتبرونه دخيلا عليهم من جانب آخر ؛ وتبعاً لذلك تزول ضمناً آثار تصريح بلفور الذى وعد فيه اليهود بإنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين .

وكان من أهم خصائص الاضطرابات التى وقعت فى البلاد خلال أعوام ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٩ ، أن العرب كانوا يهاجمون اليهود ، ثم انقلبت الآية عام ١٩٣٣ ، فأنزلوا نقمتهم على رأس الحكومة الإنجليزية ، فنشبت معركة بين الثوار العرب ورجال البوليس أسفرت عن ٢٦ قتلى و ١٨٤ جرحى من الثوار ، وقتل من رجال البوليس ضابط واحد وبلغ عدد جرحاهم ٥٦

وعادت فكرة إنشاء المجلس التشريعى إلى الظهور مرة أخرى ، ولكنها لاقت معارضة شديدة من كل جانب ، فانتقدها الإنجليز فى مجلس العموم واللوردات ، ورفضها اليهود بحجة أن هذا المجلس الذى يغلب فيه العنصر العربى لن يلبث أن يعرقل كل مشروع يهدف إلى تنفيذ وعد بلفور ؛ أما العرب فكانوا شيعاً وأحزاباً ولم يتفقوا فيما بينهم على تفاصيل المشروع ، ولما دعى وفد منهم إلى لندن حدثت أثناء تأليفه اضطرابات شديدة وهوجم اليهود والإنجليز على السواء ؛ وحينئذ أعلنت اللجنة العربية العليا الإضراب فى جميع أنحاء فلسطين وتقدمت إلى المندوب السامى بثلاثة مطالب .

١ — وقف الهجرة اليهودية .
٢ — تحريم بيع الأراضى لليهود .
٣ — تأليف حكومة وطنية تمثل عناصر الشعب .

وقد قوبلت هذه المطالب برفض حاسم من جانب حكومة الانتداب ، فاشتدت موجة الإرهاب ، واستخدم العرب فى هجومهم على اليهود ، وفى الثورة السافرة على الحكومة ، الأسلحة النارية والقنابل ؛ فطالبت السلطات الإنجليزية بنجدات من مصر ومالطة إزاء تفاقم الثورة واعتداء العرب على خط أنابيب البترول الممتدة من العراق إلى حيفا .

ثم تألفت على الأثر لجنة بريطانية للتحقيق فى أسباب الثورة ، برياسة الكونت بيل (وزير الهند الأسبق) ، فاستمعت لنيف ومائة شاهد ، وعادت إلى لندن بعد أن وضعت تقريراً فى أربعمائة صفحة أذيع فى ٧ يولية ١٩٣٧ ، ويتلخص فى أن أسباب الثورة راجعة إلى رغبة العرب فى الحصول على استقلال بلادهم ومعارضتهم للوطن القومى اليهودى ، وبالتالى خوفهم من سيطرة اليهود .

وفى الجملة يشتم من هذا التقرير رائحة التحيز الشديد لليهود والمن على العرب بأنهم أفادوا من رءوس الأموال اليهودية المستوردة فى فلسطين ، وأن ثمن أراضيهم قد تضاعف عدة مرات ، وأخيراً وليس آخراً أصبحت لهم مدارس خاصة ، كما درت صناعة اليهود على العمال العرب خيراً كثيراً . وجاء فى ختام التقرير أنه ليس فى مقدور بريطانيا أن تجيب رغبة العرب وطموحهم إلى الاستقلال ، وأن تفى بتعهداتها الخاصة بإقامة وطن يهودى فى فلسطين فى الوقت نفسه .

وقد ذكر التقرير أن حكومة الانتداب قد قصرت فى واجباتها إذ لم تتخذ التدابير الكفيلة بتنظيم انتخابات اللجنة العربية العليا التى أصبحت دولة فى داخل الدولة رئيسها غير قابل للعزل ؛ واستطرد التقرير يقول : إن سياسة التوفيق مع وجود

هذه اللجنة قد أخفقت تماماً .

وتضمن التقرير عدداً من التوصيات بشأن الأراضي الفلسطينية ، فأشار باتخاذ التدابير التي تسمح باتساع رقعة الاستعمار اليهودي ، مع المحافظة على حقوق العرب وصيانة مركزهم .

كما اقترح التقرير إعادة النظر فى مسألة الهجرة ووقفها ، مراعاة للأحوال السياسية والاجتماعية والاعتبارات الاقتصادية والنفسانية ، وأن يحدد عدد المهاجرين اليهود سنوياً باثنى عشر ألف مهاجر من مختلف الفئات ، مع إلغاء بعضها والسماح بدخول رءوس الأموال على أوسع نطاق .

وقد أشار التقرير إلى أن الداء قد استعصى فى فلسطين ولم يعد بد من إجراء عملية جراحية لاستئصال هذا الداء ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتقسيم فلسطين إلى منطقتين إحداهما عربية والأخرى يهودية ، تختص كل منهما بشئونها الداخلية والمالية والاجتماعية ، وتهيمن حكومة الانتداب على المنطقتين فيما يتصل بالشئون الخارجية والجمارك والدفاع والمواصلات ، علاوة على إدارة الأماكن المقدسة .

وقد دارت مناقشات فى مجلس العموم استغرقت عدة شهور وتمخضت عن قرار برفع مقترحات تقسيم فلسطين إلى منطقتين عربية ويهودية وثالثة للأماكن المقدسة إلى عصبة الأمم ، حتى

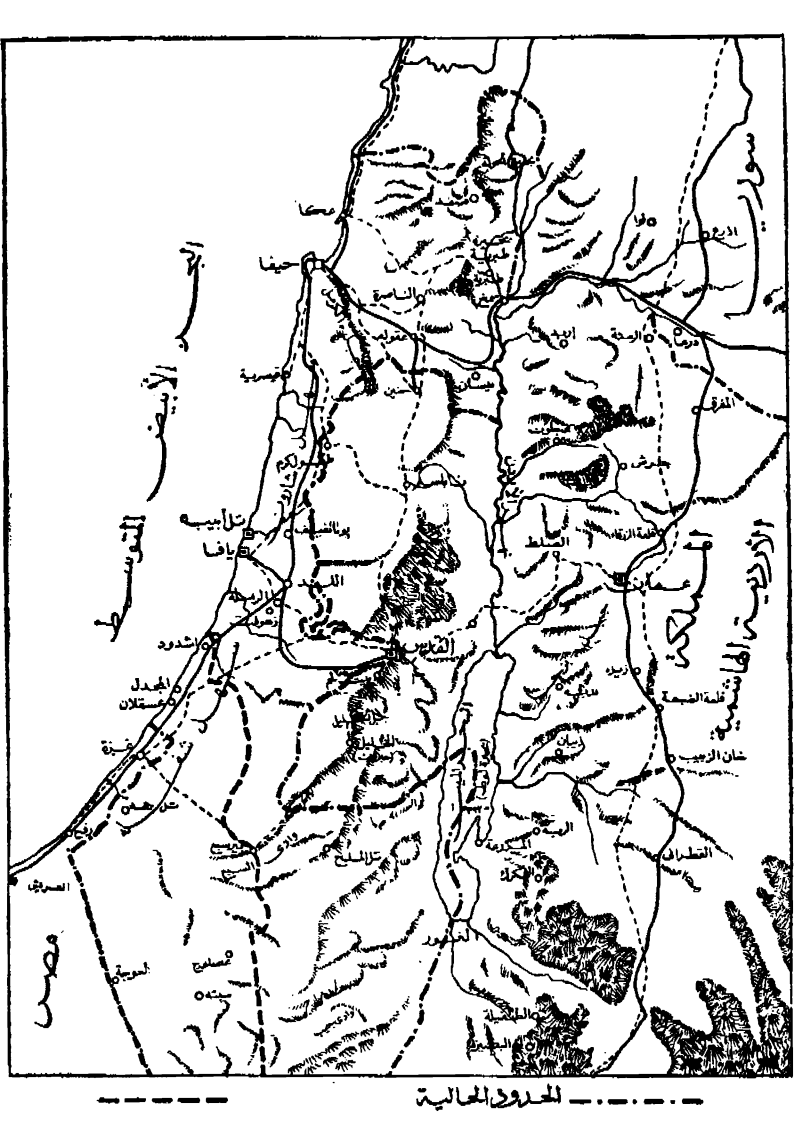
إذا ما أقرتها تقدمت الحكومة البريطانية بمشروع نهائى إلى البرلمان .

ولكن المؤتمر الصهيونى الذى عقد فى زيورخ فى أغسطس عام ١٩٣٧ عارض فكرة التقسيم ، كما ندد بما اقترحته اللجنة الملكية البريطانية من تحديد فئات معينة من المهاجرين .

وكذلك عورض المشروع أثناء انعقاد مجلس الوكالة اليهودية ، غير أن لجنة الوصاية والانتداب التابعة لعصبة الأمم استمعت لمندوب الحكومة البريطانية الذى دافع عن فكرة التقسيم ووافقت عليها ، إلا أنها أشارت بعدم المبادرة إلى تنفيذ المشروع حتى يتم نضج الوعى السياسى فى ظل الانتداب البريطانى .

ولم يدل العرب الفلسطينيون برأيهم فى مقترحات اللجنة الملكية البريطانية ، إلا أن موجة الإرهاب عادت من جديد ،فلم تجد سلطات الانتداب بدأ من إقصاء المفتى عن رياسة اللجنة العربية العليا وإعلان خروجها على القانون ، ونفى خمسة من أعضائها إلى جزيرة سيشل .

وقد فر المفتى متنكراً إلى بيروت ، إلا أن أعمال العنف والعدوان لم تتوقف بالرغم من ذلك ؛ فاضطرت الحكومة إلى إنشاء محاكم عسكرية لمحاكمة كل شخص يحمل أو يكون فى حيازته أسلحة نارية أو قنابل أو مواد متفجرة ، أو يقوم بأى عمل تخريبى أو إرهابى ، ويحكم بالإعدام على مقترفى الجرائم من الفئتين الأولين.



البحر الأبيض المتوسط
المملكة الأردنية الهاشمية
مصر
عكا
حيفا
الناصرة
طبرية
قيسارية
جنين
بيسان
طولكرم
تل أبيب
يافا
اللد
الرملة
اشدود
المجدل
عسقلان
غزة
رفح
العريش
القدس
الخليل
بئر السبع
تل الملح
العوجة
عسلوج
اربد
الرمثا
درعا
المفرق
جرش
السلط
قلعة الزرقاء
عمان
قلعة الضبعة
خان الزبيب
القطرانة
الربة
الكرك
الطفيلة
الحدود الحالية

مشروعات التقسيم فى الكتاب الأبيض

عاصفة فى فنجان ، تلك التى أثارتها اللجنة الملكية باقتراحها مشروع التقسيم ؛ فقد بعثت الحكومة البريطانية ببرقية إلى المندوب السامى بفلسطين فى أواخر ديسمبر ١٩٣٧ ونشرت على صوره كتاب أبيض جاء فيه أن حكومة لندن ليست مستعدة لقبول مشروع التقسيم بأى حال من الأحوال ، ولن تقر ما أوصت به اللجنة من نقل السكان العرب من مواطنهم الأصلية ، وأنها ستوفد إلى فلسطين لجنة فنية لبحث تفاصيل مشروع التقسيم من جديد ورسم الحدود المؤقتة بين الدولتين العربية واليهودية ، فضلا عن المنطقة التى تظل تحت الانتداب البريطانى .

وقد تألفت هذه اللجنة فى آخر فبراير عام ١٩٣٨ وعين رئيساً لها سير جون وود هيد ؛ وفى اليوم التالى عين سير هارولد ماكيكايل مندوباً سامياً بفلسطين خلفاً لسير أرثر ووشوب ، ثم وصلت اللجنة إلى فلسطين بعد شهرين وأقامت بها ثلاثة شهور ، ثم رفعت تقريرها فى الأسبوع الأول من نوفمبر عام ١٩٣٨ وكان مصحوباً ببيان عن سياسة الحكومة البريطانية إزاء الأراضى تحت الانتداب ، جاء فيه أن اللجنة رأت بإجماع الآراء عقم

مشروع التقسيم الذى أشارت به اللجنة الملكية الأولى ، وذلك لانتشار السكان العرب فى المناطق الخصبة ، وليس من الميسور انتزاعهم من موارد أرزاقهم ؛ هذا إلى أن منطقة الخليل التى ينص مشروع التقسيم الأول على إدماجها فى الدولة اليهودية يكاد يكون سكانها جميعاً من العرب دون غيرهم ، وسيقاومون كل محاولة تبذل فى سبيل ضمها ؛ أما ما اقترحته اللجنة الملكية من إلزام اليهود بدفع إعانات للعرب فأمر غير عملى ومتعذر التحقيق .

كما بحثت اللجنة مشروعين للتقسيم أطلق على أولهما اسم « ب » والآخر « جـ » ، وقد انحازت اللجنة للثانى الذى يقضى بتقسيم فلسطين إلى ثلاث مناطق : الأولى فى الشمال (وتدخل فيها منطقة الجليل وحيفا) ، والثانية فى الجنوب وتشمل منطقة النقب ، وكلتاهما تظلان تحت الانتداب ؛ والثالثة فى الوسط وتنشأ بها الدولتان العربية واليهودية كما تشمل مدينة القدس .

وقالت اللجنة إن ميزانية الدولة اليهودية أينما أنشئت ستتمخض حتما عن فائض ، فى حين أن ميزانية الدولة العربية حتى لو أضيفت إلى شرق الأردن ستتمخض عن عجز ؛ لذلك اقترحت اللجنة إنشاء اتحاد جمركى بين هاتين الدولتين وبين الأراضى التى تظل تحت الانتداب ، واعترفت بعجزها عن وضع حدود يراعى فيها جانب الحق والعدالة بين أراضى الدولتين المقترح إنشاؤهما .

وذكرت الحكومة البريطانية فى البيان الذى أذيع تعليقاً على تقرير اللجنة ، أنها تقر ما رأته هذه الأخيرة من أن مشروع التقسيم أياكانت أسسه غير مجد لأسباب سياسية ومالية واجتماعية ، وأن بريطانيا ستبذل كل ما وسعها للتوفيق بين العرب واليهود — وهذا ما غفلت عنه الدولة صاحبة الانتداب طوال الأعوام العشرين السابقة — ولذا قررت دعوة مندوبين عن العرب الفلسطينيين والبلاد العربية المتاخمة من جانب ، وممثلى الوكالة اليهودية ، إلى لندن ، للاتفاق فيما بينهم حول السياسة المستقبلة ، بما فى ذلك مسألة الهجرة اليهودية ، على أن الحكومة البريطانية بالنسبة لمندوبى العرب تحتفظ بحقها فى استبعاد أولئك الذين يعتبرون مسئولين عن الأعمال العدوانية والمذابح الفلسطينية .

وأصدرت الوكالة اليهودية بياناً على الأثر اعترضت فيه على عدد من النقط المقترحة ، لاسيما دعوة مندوبين عن الدول العربية المجاورة التى قالت الوكالة عنها إنه لا ناقة لها ولا جمل فى فلسطين .

وعقد المؤتمر فى قصر سان جيمس بلندن ، واستمر أربعين يوماً ، وقد رفض المندوبون العرب أن يجتمعوا باليهود ، فكان الإنجليز يديرون دفة المناقشات مع كل جانب على انفراد ، حتى وصلت إلى مأزق ، فقد أبى اليهود قبول المقترحات البريطانية باعتبارها منطوية على انتهاك لوعد بلفور ، كما رفضها العرب لعدم مراعاة مطالبهم فيها .

وانفض المؤتمر على هذا الأساس ، وبعد شهرين أصدرت حكومة لندن كتاباً أبيض أوضحت فيه سياستها المستقبلة فى فلسطين ، قائلة إن هدفها يتلخص فى إقامة دولة مستقلة فى الأراضى الفلسطينية فى بحر عشر سنوات بموجب معاهدة ترتبط بها الحكومتان وتنى على صورة مرضية بحاجات الدولتين الاقتصادية والاستراتيجية ، ويساهم الشعب الفلسطينى فى شئونها الإدارية المحلية بنصيب متزايد طوال فترة الانتقال المذكورة ، مع مراعاة النسبة العددية بين العرب واليهود فى الوظائف الرئيسية ، ويتحول المجلس التنفيذى فيما بعد إلى مجلس وزراء ؛ على أنه إذا استوجبت الظروف بعد عشر سنوات إرجاء إقامة الدولة المستقلة فى فلسطين كان على بريطانيا أن تستشير الشعب الفلسطينى ومجلس عصبة الأمم ومندوبى الدول المجاورة فيما يتقرر .

وأشار الكتاب الأبيض إلى أن استمرار هجرة اليهود كان أس المصائب والاضطرابات التى حدثت فى البلاد ؛ لذلك ترى الحكومة البريطانية أن تحدد الهجرة خلال السنين الخمس التالية بحيث لا يتجاوز عدد اليهود المهاجرين ثلث عدد السكان الأصليين ، أى ٧٥ ألف مهاجر ، ولايسمح بعد هذه الفترة بدخول أى مهاجر يهودى إلا إذا وافق على ذلك العرب الفلسطينيون أنفسهم .

فردت الوكالة اليهودية بأن هذه السياسة التى أعلنتها دولة

الانتداب تنطوى على إنكار لحقوق اليهود فى إقامة دولة فى أرض أسلافهم ، فضلا عن إخضاعهم للإرهاب العربى والقضاء على آخر أمل لهم ؛ وذكرت الوكالة أنها لا تقبل بتاتاً أن يوصد باب الهجرة فى وجه اليهود وأن يتحول وطنهم القومى إلى منطقة معزولة يعيشون فيها (جيتو) .

وقد وجه مجلسا العموم واللوردات نقداً شديداً إلى الكتاب الأبيض ، وحمل عليه تشرشل وأمرى حملة شعواء ، فوصفه الأول بأنه انتهاك صارخ لتعهدات التزمت بها بريطانيا على رءوس الأشهاد ، وأعلن أمرى أنه لن يجرؤ على رفع رأسه خجلا إذا أقر هذا الكتاب .

وعلى الرغم من أن الحكومة كانت تعتمد على أغلبية قدرها ٢٢٠ صوتاً فلم يوافق على الكتاب الأبيض إلا أغلبية قدرها ٨٩ صوتاً .

ولما عرض هذا الكتاب على مجلس عصبة الأمم رفضه بإجماع الآراء ، محتجاً بأن هذه السياسة لا تتمشى مع تفسير اللجنة للانتداب البريطانى ، إلا أن قيام الحرب وقتذاك أطاح بالقرار ومضت بريطانيا فى تنفيذ سياسة الكتاب الأبيض فيما يتعلق بالهجرة اليهودية حتى نهاية مارس سنة ١٩٤٠ ، على الرغم من تشرد مئات الألوف من اليهود فى بولندا وغيرها من دول وسط أوروبا .

توطيد دعائم الوطن القومى

على الرغم من العقبات التى قامت أو أقيمت فى وجه الوطن القومى اليهودى فقد سار قدماً فى طريق التقدم ، ولم يعترض تدفق سيل المهاجرين اعتداءات العرب ولا لجان التحقيق ولا تزمت الإدارة البريطانية التى كانت تتعمد الحد من هجرة اليهود إلى فلسطين بما كانت تصدره من قرارات مجحفة ببعض فئاتهم .

وفيما يلى نورد بياناً بعدد المهاجرين .

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩٣٠	٢٥٠٠	١٩٣٤	٤٢٣٥٩
١٩٣١	٢٥٠٠	١٩٣٥	٦١٨٢٤
١٩٣٢	٩٥٥٠	١٩٣٦	٢٩٧٢٧
١٩٣٣	٣٠٣٢٧	١٩٣٩	١٦٤٠٥

ولقد طرأت تقلبات على هجرة اليهود منذ ١٩٣٣ حين بدأ الإرهاب النازى ، وكان يهود بولندا من قبل يحتلون مكان الصدارة فى الهجرة إلى فلسطين ،إذ كانت نسبتهم ٤٠٪ من مجموع عدد المهاجرين ، ثم احتل هذا المركز يهود ألمانيا والنمسا الذين لم تكن

نسبة المهاجرين منهم تتعدى ٢ ٪ خلال عام ١٩٢٢ فارتفعت إلى ٣٦٪ عام ١٩٣٧ ثم إلى ٥٢ ٪ عام ١٩٣٨ ، فى حين هبطت نسبة المهاجرين البولنديين من ٣٦ عام ١٩٣٧ إلى ٢٧ ٪ من العام التالى .

وما كانت هجرة اليهود الألمان متوقعة فى يوم من الأيام ، والدليل على ذلك أن هرزل (مؤسس الصهيونية) حينما اقترح عقد المؤتمر الصهيونى الأول فى ميونخ عام ١٨٩٧ قام رجال الدين اليهود فى ألمانيا بحملة شعواء على الفكرة ، خشية أن يتهم اليهود بعدم الولاء لوطنهم (ألمانيا) .

وما كان يدور بخلدهم يومئذ أن أكثر من ٦٥ ألف مهاجر من اليهود الألمان سيكرهون على الفرار من بلادهم إلى الأراضى الفلسطينية .

ويتضح من الإحصائيات الدقيقة التى وضعتها الوكالة اليهودية أن مجموع عدد المهاجرين إلى فلسطين بلغ ٣٥٨٩٠٣ مهاجر خلال الفترة الواقعة بين عامى ١٩١٩ و ١٩٤٣ .

ويمكن القول اعتماداً على الإحصائيات التى نشرتها جريدة الجمعية الملكية لآسيا الوسطى ، أن عدد العرب الذين دخلوا الأراضى الفلسطينية خلسة بلغ فى ١٩٣٤ نيفاً و ٢٠ الف عربى ، أما اليهود الذين تسللوا بدون جوازات فقد بلغ عددهم

١٨٠٩٠ فى الفترة الواقعة بين ١٩٣٩ و ١٩٤٢ .

وفيما يلى بيان بتوزيع اليهود الأجراء فى فلسطين :

فئات	عدد العمال الأجراء	النسبة المئوية
الزراعة	٣٢٨٠٠	١٥,٤ ٪
الصناعات والحرف اليدوية	٤٩٦٠٠	٢٣,٣ ٪
النقل والمواصلات	٧٤٠٠	٣,٥ ٪
أشغال عمومية ومبان	٢٣٩٠٠	١١,٣ ٪
تجارة	٢٣٥٠٠	١١, ٪
مهنة حرة	١٦٥٠٠	٧,٨ ٪
موظفون	٢٣٠٠٠	١٠,٨ ٪
خدم المنازل والمستعمرات	١٧٦٠٠	٨,٣ ٪
وكالات مالية	٧٣٠٠	٣,٤ ٪
وظائف مختلفة	٤٣٠٠	٢ ٪
رجال بوليس	٦٩٠٠	٣,٢ ٪
الجملة	٢١٢,٨٠٠	١٠٠ ٪

وفى مستهل عام ١٩٤٣ كان فى خدمة الجيش البريطانى ٢٠ ألف يهودى ، أما الأموال التى قدمتها الوكالة اليهودية لتعمير

فلسطين خلال عشرين سنة فقد بلغت ٩,٤٧٧,٠٠٠ جنيه موزعة على النحو التالى :

الاستعمار الزراعى	٢,٩٤٤,٠٠٠
التربية والتعليم	١,٧٠٦,٠٠٠
الهجرة والتعليم المهنى	١,١١٥,٠٠٠
أشغال عمومية ومساكن	١,٠٢٧,٠٠٠
أعمال الأمن والتنظيم الداخلى	٨٨٥,٠٠٠
توسيع المدن وأموال موظفة فى التجارة والصناعة	٧٤٧,٠٠٠
الإدارة والمصروفات المختلفة	٦٢٤,٠٠٠
الصحة والخدمات الاجتماعية	٣٧٩,٠٠٠
الجملة	٩,٤٧٧,٠٠٠ جنيه

ويمكن القول بأن الأيام التى كان يهود فلسطين يعتمدون فيها على ما يجود به إخوانهم فى الدين قد ولت منذ زمن طويل ، وآية ذلك أن المبالغ التى تجبى من شتى أبواب الضرائب والتبرعات التى تنهال على الصندوق الوطنى اليهودى تبلغ نحو ستة ملايين ونصف مليون من الجنيهات سنوياً ، أى ما يقل عن ميزانية الحكومة قليلا .

ويزعم المؤلف أن عرب فلسطين كانوا خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر يهاجرون إلى ما وراء البحار سعياً وراء الرزق ، حتى إذا ما انتعشت البلاد وتقدمت اقتصادياتها بفضل اليهود طغت موجة من المهاجرين العرب القادمين من البلاد المجاورة على فلسطين ، كما أثرى أصحاب الأراضى الزراعية وأراضي البناء فى المدن من بيعها لليهود ، علاوة على ما كان يجنيه العرب من بيع الفائض من محاصيلهم ، واستخدام عدد كبير من الأيدى العاملة العربية فى المستعمرات الزراعية والمصانع اليهودية .

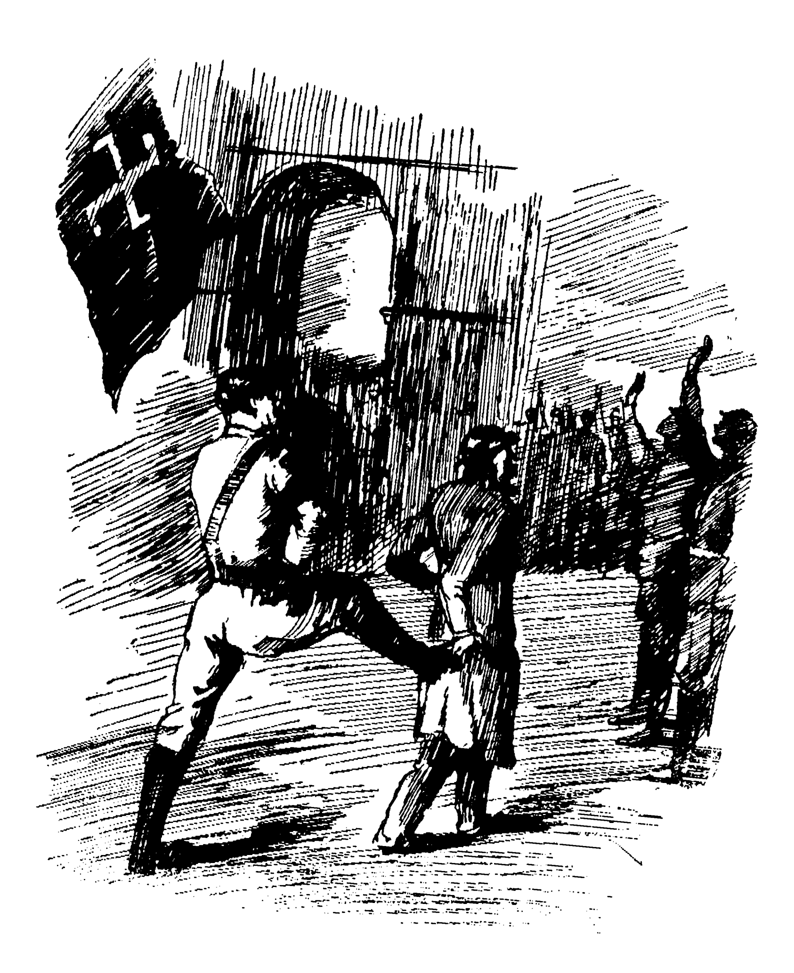
الحرب العالمية الأخيرة

كانت هذه الحرب وبالا على الحركة الصهيونية واليهود بصفة عامة بعد أن وطئت أقدام النازية مختلف دول أوربا وواصل الألمان حملتهم الشعواء على اليهود فأذاقوهم مرارة التشريد وسلطوا عليهم شواظاً من التعذيب والتنكيل وأعلنوها حرباً لاهوادة فيها على مؤسساتهم وجمعياتهم وصادروا أموالهم وسخروا مئات الألوف منهم فى شق الطرق وتمهيدها .

إلا أن الصهيونية ظلت تواصل نشاطها فى بعض الدول المحايدة ، أمثال سويسرا والسويد ، على الرغم من المتاعب التى كانت تصادفها ، أما فيما يسمونه بالعالم الحر ؛ لا سيما البلاد الناطقة بالإنجليزية ؛ فقد وجدت الحركة الصهيونية فيها مرتعاً خصباً لنشاطها ؛ واتضح للمسئولين فى هذه الدول أن مشكلة توطين اليهود جديرة بأن يوجد لها حل فى أعقاب هذه المجزرة البشرية .

هذا إلى جانب الجهود التى بذلها اليهود فى الميادين العسكرية والاقتصادية والفنية والعلمية دعماً لمجهود الحلفاء الحربى .

وقد كتب الدكتور وايزمان عشية قيام الحرب إلى نيفيل تشمبرلين يخطره بأن الوكالة اليهودية تعرض على الحكومة



الإنجليزية قوى اليهود البشرية واستخدام مواردهم نصرة لقضية الحلفاء ؛ ورد الرئيس البريطاني عليه يؤكد أنه يقبل العرض السخى الذى تقدم به اليهود ؛ وعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية لم تضع هذا العرض موضع الاعتبار مؤقتاً ، فقد عقدت الوكالة اليهودية اجتماعاً فى القدس بتاريخ ٣ سبتمبر وتقرر فتح باب التطوع أمام اليهود الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٥٠ سنة ؛ فأقبل على التطوع فى صفوف الجيش البريطاني قرابة ٨٦ ألف رجل و ٥٠ ألف امرأة ؛ وظهر جلياً أن اليهود يريدون الدفاع عن وطنهم ، كما يضعون أنفسهم فى خدمة الإنجليز دفاعاً عن قضية الحلفاء ، وعلى الرغم من ذلك كانت السلطات العسكرية تتردد فى قبول أولئك المتطوعين أو التعاون معهم . وكان أول أثر مباشر لاشتعال الحرب العالمية أن انقضى عهد الاضطرابات والاعتداءات العربية التى استمرت زهاء ثلاث سنوات ، وعلاوة على ذلك فقد ترتب على المصالح الاقتصادية المشتركة ابتداء التعاون بين العرب واليهود ، لا سيما فى تجارة الموالح ، وقد توطدت أواصر الصداقة بين أعداء الأمس القريب ، كما نمت صناعات مختلفة أخرى على أكتاف العنصرين العربى واليهودى .

وما كان ينغص على اليهود حياتهم أكثر من تجاهل سلطات الانتداب حالة اللاجئين الذين فروا من فظائع النازية

فى الشهور الأولى من الحرب ؛ فكم من سفينة كانت محملة بأجساد بشرية من اليهود وقاربت سواحل فلسطين ثم كان نصيبها إطلاق النيران عليها لإبعادها عن الأراضى الفلسطينية ، بحجة أن هؤلاء المهاجرين لا يدخلون ضمن الفئات المقررة من جانب الحكومة .

ونورد على سبيل المثال لا الحصر ما حدث خلال شهر ديسمبر ١٩٤١ للسفينة ستروما التى كانت تحمل ٧٦٩ لاجئاً يهودياً من رومانيا ؛ فلما اقتربت من استانبول فاجأتها عاصفة هوجاء ، وأراد ربانها أن يلجأ إلى أقرب ميناء ، فرفضت السلطات التركية الترخيص للسفينة بالدنو من الساحل ، فلما عادت إلى عرض البحر حطمتها العواصف وغرق جميع ركابها .

وقد بلغ عدد القوات اليهودية العاملة فى الجيش البريطانى خلال شهر أغسطس سنة ١٩٤٤ نحو ٢٣٥٠٠ يهودى فلسطينى وثمانية آلاف عربى ، خدموا فى مختلف جبهات القتال فى الشرقين الأوسط والأدنى وضربوا أمثلة رائعة فى البطولة ، إلا أن الأوامر اليومية لم تكن تميز بين عربى ويهودى وإنما تطلق على الجميع كلمة فلسطينى .

وجملة القول أن اليهود بذلوا قصارى الجهد حتى يعترف الحلفاء بوطنهم القومى حينما يكتب لألويتهم النصر .

* * *

هكذا نظم اليهود أنفسهم تحت لواء الحركة الصهيونية ، وهكذا بذلوا كل مرتخص وغال حتى أثمرت وأينعت ، فقطفوا شهى الثمرات وتحقق الحلم الذى طالما داعب أقطابهم منذ تهدم المعبد ، أى منذ قرابة عشرين قرناً

فهل يعتبر العرب ؟

تعقيب . . .

هذه قصة الصهيونية كما رواها كاتبها « إسرائيل كوهين » . فى بعض خبرها تحريف ، وأكثر ما فيها من الرأى منحرف ، ولكنها فى جملة الخبر غير بعيدة عن الواقع الذى كان . . .

وإننا ليعنينا نحن العرب أن نعرف هذه القصة ونتتبّع مراحلها منذ بدأت أسطورة خيالية تتراءى صورها الموهومة فى ذهن مؤلف عبقرى واسع الخيال عارف بطبائع الناس ، إلى أن ارتفعت الستارة عن مسرح الحوادث فإذا الأسطورة الخيالية حقيقة واقعة ذات كيان واضح نراه ونلمسه ونحسه بكل أسباب الإحساس ، وإذا لليهود دولة ذات حكومة وجيش وراية يخفق ظلها على أرض فلسطين . . .

كيف تحققت الخرافة وتجسدت شخوصها الوهمية فى هذه الصورة التى نراها بأعيننا ونسمعها بآذاننا ونكاد نلمسها بأيدينا ؟

هذا هو السؤال الذى نريد أن يسأله كلُّ عربىٍّ نفسه ثم يلتمس فى هذه القصة جواب سؤاله . . .

لم يكن فى الأمر معجزة إلهية تضيق عنها طاقة البشرية ، لا ، ولا كان لليهود من القوة وأسباب الظفر ما ليس للناس مثله ،

لا ، ولا كانوا فى موضع الرضا من الخلق والخالق بحيث يتيسر لهم ما لا يتيسر لغيرهم من الوسائل . لم يكن فى الأمر شىء من ذلك كله يتيح لليهود أن يبلغوا بأنفسهم ما أرادوا على الوجه الذى أرادوا ، ولكنهم قوم آمنوا بأنفسهم ، وبما يعتقدون أنه حق من حقوقهم ، ثم أجمعوا أمرهم ، وأحكموا تدبيرهم ، وأحسنوا خطتهم ، ودرسوا كل احتمال يتصل بموضوع قضيتهم ؛ ثم اصطنعوا كل ما يستطيعون أن يصطنعوا من الأسباب لبلوغ غايتهم ؛ فأدركوا ما أرادوا على الوجه الذى أرادوا . . .

بمثل هذا التدبير لكل مشروع جليل أو غير جليل تتحقق المعجزات وتنقلب الخرافة الأسطورية حقيقة واقعة ؛ فليدرك العرب هذه الحقيقة ويعملوا على هداها إن كان لهم غاية من الغايات يحرصون على بلوغها . . .

ذلك أول ما ينبغى أن تلهمنا قصة الصهيونية كما رواها مؤلفها فى هذا الكتاب ؛ وثمة شىء آخر يجب أن نعرفه العرفان الحق ونؤمن به إيماننا بأنفسنا وبحقوقنا ، ذلك هو أن عدونا الأول فى هذه المعركة ليس هو اليهود وحدهم ، ولكنهم الإنجليز وحلفاؤهم الأمريكان أولا ، ثم اليهود بعد ذلك ، إلى أعداء آخرين فى شرق أوربا وغربها ، كان يعنيهم أول ما يعنيهم أن تتحطم شوكة العرب ، ثم أن يتخلصوا من الأورام اليهودية فى

جسم أمتهم ، فعملوا على تحقيق الغايتين جميعاً بمؤازرة اليهود على إنشاء دولة تؤويهم فى فلسطين !

بكيد الإنجليز أولا وقبل كل شىء ، تحدد ميدان المعركة بين العرب والصهيونية ، حين أذاع الإنجليز تصريح بلفور سنة ١٩١٧ ، ثم حين خدعوا بمعسول الوعد بعض حلفائهم من زعماء الثورة العربية فى موعد قريب من ذلك التاريخ ؛ فلما بدأت المعارك بعد ذلك واستمرت ، لم تكن إلا صورة من كل حرب تشترك فيها بريطانيا ، لها ثمرتها وليس عليها شىء من تضحياتها ؛ فكانت تلك المعارك فى ظاهرها حرباً بين العرب والصهيونية ، ولكنها فى حقيقتها كانت حرباً بين العرب والإنجليز ، ليحقق الإنجليز لأنفسهم مغنما يحرصون منذ أمد بعيد على الظفر به ، هو تحطيم شوكة العرب وتمزيق وحدة بلادهم وإصابتهم بالسرطان اليهودى فى موضع الإحساس المرهف من جسم أمتهم . . .

لقد أدركت بريطانيا قبل أن يدرك أحد ، أن العرب على أبواب نهضة توشك أن تجمعهم صفاً وتوحدهم غاية وتردهم إلى مكان الصدارة بين أمم العالم ؛ ثم قدرت ما وراء ذلك من شر يصيبها ، حين يؤدى إلى ضياع ما تستغله من المستعمرات فى آسيا وأفريقية ؛ فتنهار بذلك إمبراطوريتها التى عاشت القرون على أشلاء ضحايا الاستعمار فى آسيا وأفريقية . . .

قدّرت بريطانيا كل هذا ، فدبّرت أمرها لتعوق هذه النهضة ، وتصدع وحدة العرب ، لتشغلهم عنها بشيء من صنعها ؛ فرمتهم بهذا السرطان اليهودى . . .

ذلك هو السر المختبئ وراء تلك المساعدات المتصلة التى قدّمتها بريطانيا ظاهرة ومستورة إلى اليهود فى كفاحهم لإنشاء دولة تؤويهم فى فلسطين ، فحققت بذلك لنفسها ما أرادت ، حين زعمتْ أنها بإنشاء تلك الدولة قد شطرت البلاد العربية شطرين ، شطراً فى المشرق وشطراً فى المغرب تفصل بينهما دولة إسرائيل !

على أن الإنجليز لم يستطيعوا أن يستروا غرضهم ذاك من أول يوم ؛ فهذا قائدهم « اللنبى » يقول يوم دخل القدس غازياً فى أخريات الحرب العالمية الأولى : « اليوم انتهت الحروب الصليبية ! » فكانت كلمته هذه نميمة تكشف عن الحقد المضطرم فى قلب القائد الصليبى الأخير ضد العرب والمسلمين ؛ فهو لم ير يومئذ فى فتح القدس انتصاراً على الألمان ، ولا على العثمانيين أعداء بلاده ، بل انتصاراً على أهل فلسطين أنفسهم — ولم يكونوا معه يومئذ فى حرب — لأن آباءهم هم الذين غلبوا آباءه فى المعارك الباغية التى دارت باسم الصليب فى تلك الأرض المقدسة منذ قرون !

ولكننا حين نذكر كلمة اللنبي فى ذلك المقام ، نستشعر مع الألم كثيراً من الرجاء ؛ لأننا نذكر فى هذه المناسبة التى خطرت يومئذ ببال القائد الصليبي ، أن هذه ليست أول معركة سقطت فيها فلسطين تحت أقدام الغزاة ؛ فإنها لم تزل منذ القرن العاشر هدف المعتدين الأوربيين باسم الصليب ؛ ولكنهم لا يكادون يضعون فيها أقدامهم ويزعمون لأنفسهم أن الأمر قد استتب لهم ، حتى يثور بهم العرب أصحاب البلاد فيقذفوا بهم إلى البحر أو إلى البادية ، فلا يبقى منهم إلا رءوس طافية على الماء أو أشلاء مطمورة فى رمال الصحراء ، وتعود فلسطين كما كانت بلداً عربياً يصل بين شرق الأمة العربية وغربها الممتد إلى ساحل الأطلسى . . .

تلك نُذر التاريخ التى لم تزل تتكرر مرة بعد مرة منذ حاول أول صليبي أوربى أن يضع قدمه على هذه الأرض المقدسة ، إلى عهد اللنبي . . .

على أن كبر هذه الجريمة لا يقع على بريطانيا وحدها ، فلم تزل أمريكا — منذ همست بريطانيا فى أذنها بذلك السر تبذل الجهد مسرفة فى معونة إسرائيل ، بالمال والعتاد والضغط السياسى ووسائل أخرى ؛ ولم تزل الأموال الأمريكية والأسلحة الأمريكية تتدفق على موانى إسرائيل ، لتتمكن وتقوى وتستكمل

أسباب الغلبة . . .

أذلك لأن أمريكا أمة صليبية بالمعنى المنحرف الذى تفهمه أوربا من كلمة « الصليب » ، وهو ضرورة البطش بالعرب مسلمين ومسيحيين ، لتكون الغلبة كاملة لأوربا وحلفائها على أهل المشرق ؟

أم تفعل أمريكا ذلك لأنها أمة طارئة على وطن غريب ليس لها فيه جذر ، فهى بهذه « العقدة النفسية » فى الشعب الأمريكى تريد أن تجعل توطين الأجانب فى غير وطنهم قاعدة ؟

ولكن أمريكا تزعم أنها تؤيد الصهيونية لأنها أمة ذات شفقة وعطف وشعور إنسانى مرهف ، وقد رأت اليهود شعباً بائساً ، مشرداً فى الأرض ، غريباً فى كل وطن يأوى إليه ، منبوذاً فى كل جماعة يعيش بينها ، طريداً ليس له فى الأرض ملجأ ولا ملاذ ، وقد نكل به النازى فى ألمانيا أشد تنكيل ، فأرادت أن تلم شعثه وتؤويه وتصنع له وطناً يلوذ به ويلجأ إليه ؛ فقدمت له المساعدة بسخاء ليستعمر فلسطين ويتخذها وطناً !

كذلك يزعم ساسة أمريكا ؛ فأين هذا المنطق الأمريكى ليعالج مشكلة مليون لاجئ عربى ، أقصتهم الصهيونية الأمريكية عن وطنهم الذى كانوا يعيشون فيه ويعيش آباؤهم وأجدادهم منذ بضعة عشر قرناً ، ليستوطنه المشردون القدماء من يهود العالم ؟

هل صنعت أمريكا شيئاً بمؤازرتها للصهيونية إلا أن آوت مليوناً من اليهود فى وطن صناعى ، لتطرد مليوناً من العرب عن وطنهم الطبيعى ، فيعيشوا مشردين فى الأرض ، غرباء فى كل وطن ، مطرودين ليس لهم فى بلد من البلاد ملجأ ولا ملاذ ؟

أين المنطق الأمريكى ليعالج مشكلة هؤلاء المليون من اللاجئين الجياع العراة المقرورين ، وكان لهم قبل أن يأوى اليهود إلى فلسطين وطن ؟

أترى أمريكا ستبحث لهم عن وطن صناعى آخر تلجئهم إليه ؟ فإلى أين تطرد أهل ذلك الوطن الأصليين ؟ . . .

إنها دائرة مفرغة ليس لها أول وليس لها آخر ؛ وإنه العسف والجبروت والتعصب الاستعمارى الذى لايملك برهاناً فيجعل الهوى برهانه ؛ وإنه منطق الإنسانية المريضة لا منطق الشفقة والعطف والشعور الإنسانى المرهف . . .

ولكن للتاريخ منطقاً آخر ، ولا بد أن يستعلى التاريخ ببرهانه ، ولا بد للحق أن ينتصر ؛ والعاقبة للمجاهدين الصابرين .